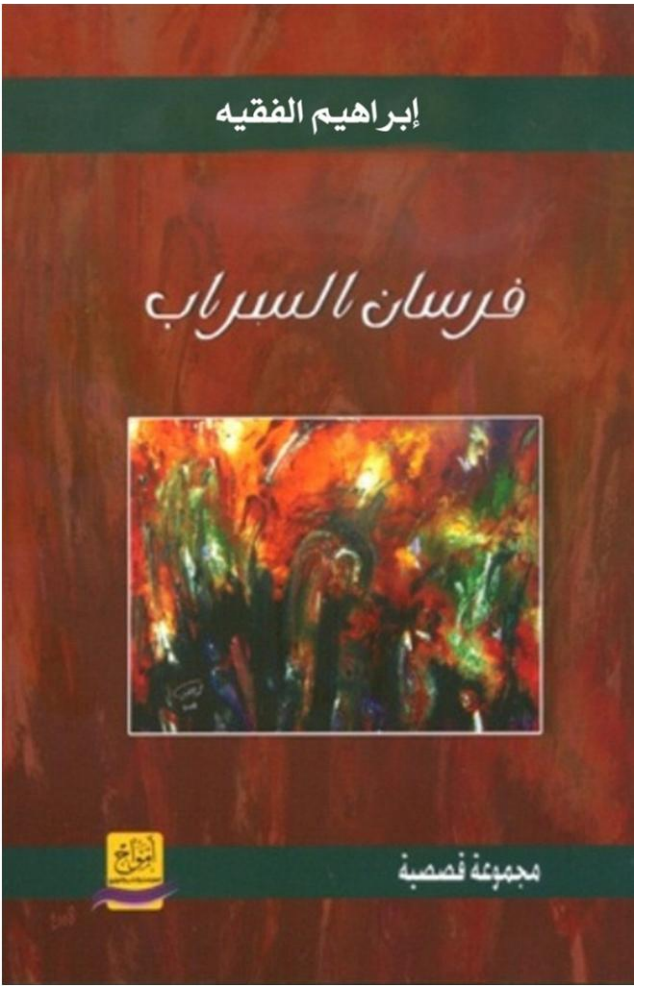
إبراهيم الفقيه
فرسان السراب
مجموعة قصصية

إبراهيم الفقيه

فرســـان الســـراب

The Mirage Knights

مجموعة قصصية

إبراهيم الفقيه

فرسان السراب

مجموعة قصصية

الطبعة العربية ٢٠١٠
عمان - الأردن

جميع الحقوق محفوظة

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

أمواج للنشر والتوزيع

أحـلام شرقـية

شعرتْ أنها لا تستطيع أن تتخذ قراراً بشأن صديقها المحامي، تذكرت ما قرأته ذات يوم "العادات الاجتماعية قلاع وحصون.. والمرأة في الوطن العربي عريش من قصب تهزه وتدمّره أية عاصفة".

لا تدري متى وأين قرأت هذه المقالة، ولا تدري كيف جالت بذاكرتها تلك اللحظة.

اعتذرت لصديقها المحامي بلباقة.. "اعذرني فأنا اليوم متعبة، نلتقي غداً في المقهى".. وفي أعماقها صرخت " أنا جبانة.. أنا لست متعبة.. أنا جبانة".

وتساءلت "معقول أن أنصاع أنا المحامية لعقلية الشارع الذي يأخذ تعاليمه من غبارٍ تراكَمَ ويجب أن يُنظّف؟.. المرأة في هذه الأيام حرّة.. تقود السيارة والطائرة، تخوض الحروب وتترأس الدول".

بصلابة وقوة وقفت ذلك اليوم أمام الشاب الذي خدش شرف الفتاة التي وثقت به، وأملت بالزواج منه.. ومع أنها ربحت القضية، وعقد الشاب قرانه على الفتاة في المحكمة أمام القاضي،

إلا أنها شعرت بذل المرأة أمام سياط الرجل، أحسّت بذراع الرجل الطائلة، وضعف المرأة.

ومع أنها قرّرت أن تصمد في وجه العواصف، إلا أنها تساءلت في أعماقها "أية امرأة هي!، أستاذ في المحاماة".. لقد نالت هذه الشهادة بجدارة من الجامعة الأردنية.. وما تزال منذ تخرجها غير قادرة على التكيف في هذا المجتمع.. ما تزال غير قادرة على استقبال أصدقائها في منزلها رغم كونها محامية.. دائماً يداهمها شعور بالاختناق وهي تتذكر الحديث الذي حفظته من والدها عن ظهر قلب منذ سنوات طويلة.. "ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما"..

تساءلت وصديقها المحامي يطلبها على الهاتف ليشرب في بيتها فنجان قهوة، أو تشرب القهوة في بيته.. ماذا يعني ذلك!.. وماذا سيقول عنها الجيران وهم يرونها تستقبل أحدهم في منزلها!.. قد يصفونها بأسوأ وصف.. "سيقولون ويتقوّلون"..

"ليشربوا البحر".. حدّثت نفسها، وأضافت "المرأة الحرة تدخل وسط طابور من العسكر، وتخرج منه حرة لا يمسّها أحد".

على أحد المقاعد في مقهى يطل على شارع الثقافة في منطقة الشميساني جلست تنتظر، ارتشفت فنجان قهوة، نظرت إلى ساعتها، قاربت من التاسعة مساء، شهقت، صديقها المحامي لم

يأت بعد.. تحركت الأنثى في أعماقها.. صرخت "تأخر الوقت!"..
تمالكت نفسها واستعادت رباطة جأشها.. المقهى مليء بالعاطلين عن العمل الذين يسهرون ليلاً وينامون نهاراً.. شعرت أن هؤلاء المحيطين بها تتزايد أعدادهم باستمرار، حدثت نفسها " قد تتحول المدينة كلها إلى مقاهي ومطاعم".. سمعتهم يتهامسون.. جالت بنظرها إلى وجوههم وأغمضت عينيها.. نظرت إلى الساعة.. تأخر صديقها المحامي عن موعده كثيراً، حضوره في ذاكرتها بدا طاغياً تلك اللحظة، تأففت.. نظرت إلى الشارع، تأملت الوجوه من وراء الزجاج.. انزلق بعض المشاة تحت الأضواء واختفوا في الأماكن المعتمة.. وجوه مسرعة تذوب في عتمة الظلال أو بين الواجهات.. لمحت رجلاً يشبه صديقها المحامي من بعيد، اجتاز المقهى وعبر الشارع العريض.. ارتجفت أصابعها وهي ترفع فنجان القهوة الثاني إلى شفتيها.. لفحتها حرائق الدخان ورائحة المعسل والأراجيل في المقهى.. لاحقت الرجل بنظراتها.. ارتعشت يدها.. هبّت واقفة، وضعت ثمن القهوة على الطاولة، وخرجت من المقهى.

"الحساب"، قرع صوت النادل أذنيها.. "الحساب يا آنسة"، لم ترد عليه، مشت في الشارع بسرعة.. ألقت المصابيح بنورها الساطع على الأرصفة وعلى شارع الثقافة الذي بدا خاوياً كمدينة أثرية مهجورة.. وقف الرجل أمام واجهة زجاجية لأحد المحلات

التجارية.. تأملته جيداً، إنه صديقها المحامي، أسرعت الخطى نحوه.. انبثقت سيدة من وسط الظلام واقتربت منه، تأبط ذراعها وتمشيا على مهل.. تابعت السير وراءهما في ليلها المظلم.. راقبتهما من بعيد، عشيت عينيها، توقفت عند الواجهات وأخفت ملامح وجهها أكثر من مرة.. " تفضّلي يا مدام، أنا وسيارتي في الخدمة"، تلفتّت يميناً وشمالاً.. قفز رجل من الظلال ووقف جانب سيارته وفتح الباب.. "تفضّلي"، نظرت ثانية، لم تجد غيرها في الشارع، حملقت في وجهه، رغبت لو تنهال عليه بحذائها.. لم تجرؤ.. انسلّت داخل محل تجاري قريب.. اختفت السيارة من الشارع.. تسللت ثانية إلى الخارج.. تمشّت قليلاً وراحت تبحث بنظراتها عن صديقها المحامي مع فتاته.. لم تعثر عليهما.. توقفت سيارة بجانبها فجأة، لامست مرآة السيارة ثيابها، " تفضّلي، أنا.."، لوّحت بقبضتها في وجهه، رغبت في الصراخ، هدر محرك سيارته وانفلت السائق من قبضتها.. تحرّكت في أعماقها أنوثة المرأة الشرقية، وتذكرت ما قرأته يوماً في إحدى الصحف..

" في الشارع المرأة أمَة يركلونها بأقدامهم، ويعيرونها بثوب الأنثى.. المدن العربية لا تقبل تسكّع النساء في الليل".

توقّفت على الرصيف وراحت تبحث عن سيارة أجرة.. توقّفت سيارات خاصة، وتمهّلت سيارات فخمة أمامها، "نظرات الرجال واحدة.. لم تتغير منذ آلاف السنين".. حدثت نفسها.. "المرأة

الوحيدة في الليل مومس، وفي أعماق كل رجل عشرات الذئاب الجائعة تجاه المرأة ".. شعرت بالخوف.. لأول مرة في حياتها تشعر بالخوف من الرجال.. " المرأة في داخلها ضَعْف أمَة مهما كانت قوية، وظاهرها تفاحة يشتهيها الرجال".. حدثت نفسها ثانية، وترحمت على والدتها التي حدثتها عن المرأة الحرة، ونسيت أن تخبرها عن الرجال الذئاب والأشرار.

لاحت لها سيارة أجرة صفراء اللون من بعيد، قفزت وسط الشارع ولوّحت بيدها للسائق.. صرّت عجلات السيارة وتوقّفت، فتحت الباب الخلفي وألقت بثقل جسدها على المقعد الخلفي، أخبرته عن وجهة سيرها، وأغمضت عينيها على دمعة بحجم حبة رمل.

****

جريدة الدستور ٢٠٠٩/٢/٢٦م

ضيـاع

قاربت الساعة من الرابعة مساء ولم يظهر ابنه الصغير بعد، مرّ الوقت سريعاً، وبدت وجوه أفراد عائلته شاحبة ذابلة.. منذ ثلاث ساعات وهم يبحثون عنه، انقلبت سعادتهم إلى جحيم.. غرس زوجته وبناته الثلاث في تقاطع المتنـزه الخارجي، وطلب منهن مراقبة المشاة وراكبي السيارات، والتجأ إلى أقرب دورية شرطة.

كابوس من القلق راح يطارده، عشيت عينيه.. تعثرت كلماته واختنق صوته.. سأله رجل الأمن عن عمر ابنه وعن ألوان الثياب التي يرتديها.. تلعثم، لم يستطع الإجابة عن ألوان ملابسه.. تذكّر بعد لحظة صمت أن ابنه يرتدي بلوزة خضراء وبنطالاً زيتي اللون.. حمد الله أنه تذكّر.. بدت كلماته حزينة متقطعة.. طلب رجل الأمن منه أن يستمر في البحث حتى مغيب الشمس، وبدوره أدار الجهاز وأعطى تعميماً إلى كل الدوريات والمستشفيات عن اسمه ومواصفاته.. وقبل أن يخطو خطوات قليلة، ناداه رجل الأمن: "انتظر".. نظر إليه وتغيّرت ملامح وجهه، سمعه يقول على الجهاز "طفل في السابعة!، إصابة خطيرة!".. تهاوى وجلس على حجر من حجارة رصيف الشارع قرب سيارة الشرطة، لم يعد يرَ أو يسمع شيئاً.. صورة ابنه فقط

جالت بمخيلته.. تساءل "إصابة خطيرة، ربما كان هناك دماء أيضاً.. اعتداء، خوف، أية مصيبة هذه! معقول!".. قال رجل الأمن إنهم أدخلوا طفلاً في السابعة من عمره إلى مستشفى الأشرفية وحالته خطيرة.. وأضاف "انتظر لحظة، سأحاول الاستفسار عن اسمه".. بدا في ضياع تام، وغزت أفكار تائهة رأسه.. مرت الدقائق بطيئة متثاقلة بعمر الساعات،.. أضاف رجل الأمن "إنه في السابعة من عمره وقد صدمته سيارة قرب بيته في جبل النـزهة".

"لا يمكن أن يكون ابني، خاصة وإننا نقيم في حي نزال". قال.
"اطمئن، سيظهر ولدك، لكن لا تغادر المتنـزه قبل غروب الشمس". قال رجل الأمن.

جاوزت الساعة الخامسة مساءً.. دارت بذاكرته كل الأخبار التي قرأها في الصحف أو سمعها من أفواه الناس.. " طفلة مفقودة في الزرقاء.. العثور على جثة طفل متعفنة وملقاة في بئر.. طفل في الكرك ما زال البحث جار عنه.. وغداً في الصحف يضاف خبر جديد.. طفل.."، توقفت الكلمات في حنجرته.. تحجرت دمعة في عينيه، شعر بجفاف حلقه.. لا، لا.. لو يظهر مصاباً أو جريحاً أو.. أهون من الضياع.. "حدث نفسه" "في الضياع تدور ملايين الأسئلة العقيمة، وتبقى بلا أجوبة واضحة.. طفل معتدى عليه.. جثة طفل.. لا، لا.. أريد أن يُنشر

الخبر واضحاً وصريحاً.. طفل مفقود وما زال البحث جارٍ عنه".. رفض الفكرة، ابتلع ريقه، بدا حلقه بئراً جافاً.. تساءل في قرارة نفسه " أهذا ما يسمونه جفاف الحلق!، أهو الضياع أم الرغبة في البكاء، أم الصراخ!".. شعر أن شفته السفلى تهتز وترتجف، وراح يسابق الغروب ويبحث عن ولده.

قاربت الساعة من السادسة مساء.. أخذ المتنزهون يرحلون بسياراتهم خارجين من المتنزه عائدين إلى بيوتهم، عاد إلى عائلته.. من بعيد شاهد خيبة الأمل بادية على وجوههن.. لم يسألهن.. قرأ الجواب من العنوان.. حوّل مسيرته واتجه داخل المتنزه ثانية.. ضاع بين طرقاته المتعرّجة.. أسرعت الشمس بخطاها نحو المغيب.. انحنت النباتات الصغيرة إلى الأرض، وأرسلت الأشجار الكبيرة صريراً يشبه الأنين والنواح، طغى على صوت مطرب حديث يعلو من حافلة ترحل.. صوت ذابل في مؤخرة رأسه ينادي "بابا، بابا" ، ويتيه بين الأشجار والناس والصخب في المكان.. أحسّ أنه كبر أكثر من عشر سنوات في هذه الساعات القليلة، وراح شريط من الذكريات يجتاح ذاكرته.. النجاح، الفشل، الفرح، الحزن، الضياع.

منذ الصباح استعدّت عائلته للقدوم إلى هذا المتنزه.. كانوا يمرحون ويلعبون.. وعند الغداء افتقدوا ابنهم الصغير "محمود" فلم يجدوه.. بحثوا عنه في كل مكان.. داروا أنحاء المتنزه، ومع

ذلك لم يجدوا له أثراً.. ضاع ابنه الوحيد الذي تمنى رؤيته بعد ثلاث بنات.. كان من الناحية البدنية مستعداً للبحث عنه، إلا أن أفكاره ومشاعره ظلت بالقصور الذاتي مرتبطة إلى حد كبير بفكرة الضياع.. انقضّت فكرة الضياع على رأسه كضربة مطرقة، وهشّمت تفكيره.

أخذ نور الشمس يخبو بسرعة.. شعر أنه مجهد، لم يعد يسمع سوى صوت الأشجار كصرير الخشب في سفينة تغرق.

اقتربت الساعة من السابعة مساءً وهو يدور بين الأشجار العالية.. تعثرت قدمه بحجر، تطوّح ووقع على الأرض.. نهض ببطء مائلاً بجذعه إلى الأمام.. بسط كتفيه بخفة وراح يتأمل المكان.. لم يكن لديه الوقت لمراجعة أحاسيسه والتفكير فيما إذا كان هذا قد حدث بالفعل أم لا.. سأل أحدهم بكلمات مجروحة إذا كان قد شاهد طفلاً في السابعة من عمره ضالاً بين الأشجار؟.. أجاب بأن "أمانة المتنزه هي المسئولة عن الأولاد المفقودين".

شقّ طريقاً جانبياً وأسرع نحو إدارة المتنزه.. هرول وهو بالكاد يمشي بعد أن جاوز عمره الخمسين عاماً.. عند الإدارة شاهد طفلاً يبكي ويصرخ "ماما، ماما"، ومن خلفه وقفت طفلة بمثل عمره تذرف دموعها، وتنتظر قدوم أهلها بفارغ الصبر.. هرول ثانية واتجه نحو المنحدر، انعطف بين الأشجار يرقب

جذوعها لعله يجد ابنه نائماً هنا أو هناك.. انزلقت رجله على أعشاب خضراء وسقط ثانية قرب صخرة.. تحامل على نفسه ووقف.. شعر أنه ابتعد كثيراً.. أغمض عينيه ثانية، ومع ذلك ظلّ يرى بوضوح وهو مغمض العينين صورة ولده.. كانت الفوضى تسود المكان.. أكوام القاذورات ومخلفات الطعام والعظام تناثرت عند جذوع الأشجار.. بدأ جيش الظلام يغزو المكان.. تراءى له ولدين من بعيد.. اقترب منهما.. كانا جالسين يرقبان شاباً وفتاه يتعانقان تحت شجرة قريبة، لمحته الفتاة فأسرعت تهندس ثيابها، وجلست مع الشاب وكأنهما يتحدثان.. عاد أدراجه وتسلّق المرتفع.. خانته قدماه، ومع ذلك لم يتوقف.. وقرّر أن لا يبرح المتنزه حتى يجد ابنه.

ازدادت السماء ظلمة، بدت الأشجار صفراء داكنة عند الأفق، خضراء رمادية عكرة عند رأسه.. أيقن أن ولده سيكون في عداد الأموات صباح الغد ما لم يعثر عليه أحدهم قبل الغسق.. شعر بحضور الموت.. في أعماقه رفض الفكرة.. لا، لم يمت بعد.. إنه يتألم.. الألم دليل الحياة.. عليه مواصلة البحث.. أما عندما يتوقف الألم فسيكون فعلاً في ورطة.

من بعيد وعلى أضواء السيارات، شاهد زوجته خائرة القوى، تجلس متكئة على جذع شجرة.. بدا الجو خانقاً.. أخذ قلبه ينتفض وزوجته تتحدث عن مصيبتها.. بناته الثلاث انخرطن في البكاء

أيضاً، نظر إليهن بنفس المزيج من الشعور بالخوف والتعب والضياع.. جاهد وغالب عذاباته، شعر بنفسه وعائلته تغرق في آبار الحزن العميقة.. لم يعد للكلمات أي معنى.. ماذا يعني لو فقدوا ابنهم الوحيد.. لو كان نائماً عند جذع شجرة، لو كان مخطوفاً.. ماذا لو كان مقتولاً.. حدث نفسه، كل الأسئلة سواء ولا أجوبة لها.. كل الأسئلة تعني ضياع ولده في هذه الغابة.. وبقية الإجابات مخنوقة حتى الوريد.. صرخ بأعلى صوته، "محمود".. تعثر الصوت في حنجرته، تهدج واختنق.. حشرجة وبحّة خنقت صوته وقطّعت أوصاله، وعندما حاول الصراخ ثانية انطلق الصوت مثل عواء ذئب جريح.

ساد المكانَ ظلام دامس.. اندفع ثانيه نحو المنحدر، لم يجد غيره في المتنزه بين أشجار الغابة.. الأفق كفّنه السواد، وتحوّل الغناء إلى نواح.. نادى بأعلى صوته، صرخ باسمه ابنه ثانية، جاوبه الظلام.. أنّت الريح وتهامست الأشجار.. رأى وجه ابنه في الأوراق الذابلة، في رحيل العشاق وعودة المتنزّهين.. تساءل في دخيلة نفسه "هل تعود مركبتي خاوية بلا قلب، وسائق ميت!".

ظهر ضوء سيارة من بعيد.. وقف وسط الشارع الضيق.. سلّط السائق الأضواء على وجهه.. اندفع عبر طريق فرعي.. سمع

صوتاً "الطريق مغلق، إلى أين تتجه؟".. توقّف فجأة وكأن الصوت أمره بالوقوف.. قال بصوت مبحوح "لا أدري".

كان في أشد حالات اليأس، ولم يعد للأمل بقايا حياة.. بدأ يهيّئ نفسه لمصيبة أكبر من الضياع.. قال الصوت "أنت ضائع مثل ابنك".

خُيّل له أنه يعرف صاحب الصوت.. توقف.. قفز ولده محمود من السيارة وركض نحوه.. شعر بدوار في رأسه واحتضن ولده.. قفزت الدموع وملأت وجهه.. تقدم واتكأ على مقدمة السيارة بين الأضواء.. قال شقيقه الذي كان يقود السيارة بعد أن ترجّل منها:

"كان في مطعم التلال السبعة، ومن حسن حظه أن أحد العاملين فيه يعرف رقم هاتفي".

همس وهو يحاول ابتلاع جفاف ريقه "الموت أهون وأرحم من الضياع".

قال محمود إنه قضى نهاره عند عائلة في المتنزه، وعند المساء أودعوه في المطعم حتى يجد أهله أو يجدوه.. ضاعت الكلمات وتوقفت في حنجرته..

أسرع إلى والدته.. اندفعت وغمرته بالقبلات والعناق والدموع.. ولأكثر من خمس دقائق بقيت جالسة على الأرض لا تقو على الوقوف، ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت "أعرف أن أي

مولود هبة وهدية من عند الله، الشكر لك والحمد يا رب، لأنك وهبتني هديتك الغالية نفسها مرتين".

عمان ٢٠٠٢/٧/٥م

***

حكاية قلب

لا تدري كيف اجتاحها هذا التعب بعد إلقاء محاضرة اليوم.. تنفست الصعداء واتجهت نحو مكتبة الجامعة تبحث عن أحد المراجع، من بين رواد المكتبة وقع نظرها على أحد زملاء الدراسة، تأملته جيداً، كان جالساً وبين يديه مجموعة من الأوراق يتصفحها.. عصفت بها الذكريات، جلست على بعد أمتار منه.. راحت تتأمله جيداً، وتتصفح دفتر ذكرياتها التي تحمله في أعماقها.. تماوجت أحاسيسها، ارتبكت.. حاولت أن تبعد نظراتها عنه، وجدت نفسها مشدودة إليه قسراً.. تأملته ثانية، تفرست في ملامحه، وراحت تقارن بين ملامح هذا الوجه وما تعرف عن وجهه الشاب أيام الجامعة.

الوجه هو بالتأكيد.. حدثت نفسها.. لم تقع عيناها عليه منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.. لقد سمن قليلاً.. لعله ترك ممارسة الرياضة.. هل تسأله ما الذي أتى به إلى المكتبة هذه الساعة بعد كل هذه السنوات.. قالت في سريرتها " ربما تذكّر ماضيه وحنّ إليه وإلى سنوات الجامعة، كانت معظم جلساتنا في هذه القاعة".. هل تسأله.. "لكن من الصعب أن تبدأ معيدة في الجامعة بالسؤال".

لا بد أن يبدأ هو بالسؤال، إذا نظر إليها وتلاقت العيون، لا بد أن يتذكرها.. لكنه ما زال يتصفح أوراقه.. ترى بأي شيء هو

مشغول!.. تراءت لها الصور، تجسمت السنوات في ذاكرتها، وانسابت اللقطات متوالية محركة عمق الوجدان ولحظات الحب الهاربة.

إنه هو، وجه صبوح وثغر باسم.. لكنها تراه متجهماً هذه المرة على غير عادته.. حدثت نفسها: "ربما كان مهموماً، وهل هناك إنسان خالي من الهموم في هذا الزمن!.. ربما أرخت عليه السنوات وقار العمر.. العمر ضاع ولم يبق منه إلا القليل".

تصفحت وجهه ثانية وحدقت في ملامحه، إنه هو بالتأكيد، لكن لماذا لا يرفع رأسه وينظر إليها.. حدثت نفسها ثانية: "هل هو كبرياء أو إهمال مقصود!، أو لعله تريث منه!".. تساءلت، "هل تجرح كبرياءها وتبدأ بالتحية والحديث!.. هل تقدم نفسها إليه!، أنا.. ألا تذكرني يا أستاذ كمال!".

ما زالت تتذكره تماماً، غيّرت السنوات ملامحه قليلاً، لكنها لا تغيّر الصوت والبصمات وفئة الدم.. إنها جلسته، يضع ساقاً على الأخرى.. كان لا يرتاح في جلسته إلا هكذا.. وهيمانه، كأنما هو شاعر أو فنان سابح متأمل يطارد فكرة، أو تطارده فكرة.. مثل العشاق الهائمين الحالمين.

تماوجت الأحاسيس في صدرها والتصورات، " لعل امرأة أخرى وجدت فيه فارس أحلامها، فغدا أسيراً لها لا ينظر إلى

غيرها.. وحبه!، تساءلت، هل نسي حبه الأول أثناء دراسته في الجامعة!؟، ما زالت تذكر عبارته التي لا تزال محفورة في وجدانها، " لن أكون لغيرك، ولن يفرقنا غير الموت"..

كلمات أخذتها الجامعة وصخب الحياة، وأذرتها رياح السنوات بعد التخرج.. تذكّرت محاولته الشعرية الأولى عندما كتب لها أول قصيدة في حياته من خواطره الشبابية.. كان يقرأها على مسامعها وتضحك معه لتلك المحاولة البدائية، لكنها وجدت فيها نفحة الحب ولهجة الصدق.. ما زالت تحتفظ بها وتحملها في حقيبتها أينما ذهبت وحيثما تواجدت.

همّت أن تتقدم منه وتسأله: "هل تذكرني!".. ضبطت قدميها وتريثت، أمسكت لسانها وحدثت نفسها "لا يصح حفظاً لكرامتي، وصوناً لصورتي في ذهنه".

" تمر أمامه"!.. بلا شك سيتعرف عليها عندما تلتقي العين بالعين.. أم تراه من ذلك النوع الذي لا تستوعب ذاكرته الملامح والأشكال رغم فطنته وذكائه!.

تذكرت ما قاله لها في عامه الأخير، قبل أن يتخرج من كلية الطب في الجامعة الأردنية، أنه ينوي متابعة دراساته العليا وتخصصه في ألمانيا.. تساءلت في دخيلتها " لماذا تهاجر أو تهرب الكفاءات والمواهب وأصحاب الأقلام من البلاد العربية..

سواء أولئك العاملون بـأدمغتهم أم آكلو العيش بأيديهم وأقدامهم.. ألا يوجد متسع لهم في العالم العربي!؟".

بعد الجامعة اختفى الحلم ومضى كشعاع.. تاه منها في موج الحياة ولم تعد تراه، كما لم تعد تعرف له عنواناً.. منذ سنوات طويلة وهي تبحث عنه وسط الزحام.. تحاول أن تلتقط الخيط الذي يوصلها إليه، بعد أن تخرجت وعملت معيدة في الجامعة الأردنية.

تصفحت المجلات علها تعثر على صورته أو شيء يتعلق بأخباره، لم تيأس من العثور عليه وأمل لقياه.. وكثيراً ما كانت تردد في أعماقها بيت الشعر:

قد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا.

بحثت في دليل الهاتف يوماً عسى أن تجد له أسماً أو تلقاه، وتساءلت " لماذا ذهب ولم يسأل عنها أو يتصل بها إذا كانت ما تزال في بؤرة تفكيره!".

سؤال حيّرها وأرقها لسنوات بعد أن أعطته عنوانها ورقم هاتفها يوم سفره.. لم يتصل إلا عدة مرات بعد رحيله، وعدها أن يلقاها في الصيف أثناء إجازته، وأكّد لها أنه سيتزوجها في أول سانحة له يعود فيها إلى الأردن.. لكنه لم يعد، رحل صيف بعد

شتاء، ورحل ربيع عمرها ولم يبق لها غير الخريف، تاه نورسها في بلاد الله الواسعة، وما زالت تنتظر أوبته.

تأملت يديه أيضاً إذا كان في إصبعه خاتم زواج أو خالي الطرف، وبلا تفكير وقفت وتمشت أمامه ثم رمقته وجلست.. وكثرت تساؤلاتها كالمحقق الحاذق الذي يريد أن يصل للحقيقة.

التفت إليها.. "يبدو أن الحاجز تكسّر وجبال الثلج ذابت".. ابتسم ابتسامة خفيفة فيها عفوية الطبع وصدق الطبيعة.. نفس الابتسامة.. بسمة تنم عن شفاه ليست غليظة ولا تعرف التجهم، جبين متناسق مع استطالة في الوجه وإشراقة المحيا، لكن هذه البسمة الخفيفة تدل على ذوق وحس مرهف، لا على سابق معرفة.. حدثت نفسها وتساءلت، "هل تغاضى أم نسي؟!..أم أنها حمّلت الأشياء أكثر مما تحتمل!".

وفكّرت.. لا بد أن تسمع نبرات صوته.. نبرات صوته تشرّبتها في أعماق وجدانها منذ أيام الجامعة، نبرات حنونة دافئة تستطيع تمييزها من بين آلاف النبرات من الأصوات، ذابت والتصقت في حسها.

لكن لماذا كل هذه المداورة من أستاذة معيدة في الجامعة!.. حدثت نفسها وأضافت، لماذا لا تقطع الشك باليقين وتزيل هذا الارتباك!.. لماذا لا تذهب إليه مباشرة وتحدثه، أو تتوجه إلى

أمين المكتبة وتطلب منه أن يذهب إليه قائلاً أن هناك من يسأل عنه!.. أعجبتها الفكرة.. " لا بأس، وليس السؤال محرجاً ولا معيباً"..

- هل حضرتك الأستاذ كمال.. هناك من يسأل عنك.. وأشار إلى السيدة التي تجلس على مقربة من غرفة الأمين.

وقف.. نظر إلى حيث تجلس، واتجه إليها.. قال:

- عفواً، أنا لست الأستاذ كمال.. أنا أخوه التوأم.

غامت الدنيا في عينيها، وغشيها صداع مفاجئ.. ارتبكت، ولم تستطع الوقوف.. قالت في تلعثم:

- حسبتك الأستاذ كمال.. مع الأسف لم أره منذ أن تخرج من الجامعة.. أنا عاتبة عليه لهذا الإهمال الذي يصل إلى حد القطيعة، خاصة وأنه يعرف عنواني ولا أعرف عنوانه.. أين هو.. بلّغه تحياتي، أو أعطني عنوانه.

أطرق الرجل قليلاً، ثم زفر زفرة خفيفة، وقال: ليتني أستطيع..

نظرت إليه مستغربة، وقالت تبدد صمته:

- تفضل، اجلس.. لماذا لا تستطيع؟!.. هل هو محافظ إلى حد التزمت أم له زوجه تغار عليه!.

مرت لحظات صمت قبل أن يجيب، ثم قال بصوت متهدج:

- لا أستطيع.. لأنه رحمه الله..

هبت واقفة وقاطعته "كيف ومتى!؟"..

قال: "النوابغ عادة لا يعيشون طويلاً.. ينحتون من أعصابهم وأدمغتهم.. العالِم النابغ في هذا العصر مطارد".

سألته: "هل كان سياسياً!".

- بل كان عالِماً من أفذاذ العلماء.. والنوابغ يطاردهم الأعداء بمخالب طويلة.. والمرحوم ليس أول ضحية من العلماء تفقدهم أمتنا العربية.. إنهم يحاربوننا بقتل علمائنا ونوابغنا..

وسألها: كيف تعرّفت على أخي كمال.. هل أنت زميلة دراسة.. هل تعرفينه.. هل عندك ذكريات عنه!.. إني أجمع أوراقه ورسائله وكل ما يتعلق..

قاطعته ثانية: "لكن لم تخبرني ماذا حدث له؟".

- كان في دراسته متفوقاً.. عكف على العلم، كان يريد أن يضيف جهداً للحضارة الإنسانية.. وقبل أن يقدم نتائج بحثه، طارده الذين لا يريدون للأدمغة العربية أن تتقدم.. لو شغلته ملاهي أوروبا ومباذلها، أو لو كان صعلوكاً لما اغتالوه..

ألقت بثقلها على المقعد وقالت: "ربما كان له أعداء أو خصوم!".

- لا، ولكن هناك عصابات موجهة لاصطياد العلماء والكفاءات، إنها حرب قذرة.. لا يريدون للعلم أن يزدهر في بلادنا.

وللحظات خيّم الصمت على المكان.. قالت:

- هل عندك صورة له للذكرى!.
- سأرسل لك صورة مع دراسة نشرها في إحدى المجلات العلمية الأوروبية قبل اغتياله.. أنتِ معيدة في الجامعة كما عرفت من أمين المكتبة، أليس كذلك!.. هلا تحدثتِ لي عما تعرفين عنه لأوثق ذلك في كتاب سينشر قريباً عنه.

صمتت لحظة، وبلا تفكير امتدت يدها إلى حقيبتها، فتحتها وتناولت منها قصيدته الشعرية الأولى المخطوطة بخط يده، وقدمتها له قائلة بأن صور القلب أجمل وأبهى من كل صور الواقع.

وساد الصمت بينهما ثانية.

****

عمان ٢٠٠٣/٢/٢٤م

دمعة

مر أكثر من عام قبل أن يلتقيا ثانية في حفل مدرسي.. تصافحا للمرة الأولى.. هي في ربيع عمرها وهو في خريفه.. متزوج وعنده ثلاث بنات وولد واحد.. جمعتهما منضدة وعلبتي عصير.. لاحقت نظراتها ضيوف الحفل، بينما راح يختلس بنظراته صفحة وجهها ويتأمل جمالها.. تذكّر كل ما حدثته زوجته عنها: "ترمّلت ليلة زفافها، أصيب زوجها بعيار ناري طائش أثناء حفلة الزفاف وفارق الحياة على الفور، ومنذ سبعة أعوام لم يتقدم أحد لخطبتها.. تعمل معلّمة في نفس المدرسة التي تعمل فيها زوجته..".

قالت أيضاً أن لصديقتها حكايات، بعضها مؤلم، وبعضها أشد إيلاماً.. قالت وقالت، حتى غدا يعيش قصة حياتها ويتشوق لرؤيتها.

أيقظه تصفيق المدعوين من متاهته.. وقف مع من وقفوا استعداداً لمغادرة الحفل.. نظر في وجهها ثانية وعرض عليها أن يوصلها إلى بيتها.. اعتذرت، قالت:

- ألم أقل لك سابقاً إني أعرف الرجال من نظراتهم وعيونهم.

قال: "ولماذا تتجاهلين نظرات الاحترام والصداقة!".

- وهل تؤمن بالصداقة بين رجل شرقي وامرأة!.

لم يجب، سادت فترة صمت بينهما لدقائق.. غيرت الحديث، وراحت تتحدث عن الحفلات المدرسية والعلاقات الاجتماعية.. قال:

- لقد تغيرت المفاهيم، وصارت المرأة تنافس الرجل في كل أعماله، وأظنك توافقين على أن أي رجل لا يستطيع التجرؤ على امرأة دون موافقتها.
- بعد التجارب التي مررت بها لم أعد أثق بأي رجل، ولو خُيّرت لمنعت الاختلاط بين الرجال والنساء..

ابتسم وقال: لا تكوني متشائمة إلى هذا الحد.. وأضاف، ما رأيك باحتساء فنجان قهوة؟.

رفضت دعوته ثانية وقالت: إذا التقينا ثانية سأقبل دعوتك.

- لكني أرغب في رؤيتك ثانية..

نظرت إلى وجهه مباشرة، تذكرت زوجته والصداقة التي تربطهما.. قالت: شرط أن تحضر زوجتك معك..

- المهم أن تقبلي الدعوة..
- إذن نلتقي غداً بعد الظهر عند استراحة الشلال.

تلك الليلة، ظل يتقلّب في فراشه.. سرحت أفكاره عبر عالم ضبابي.. تساءل في قرارة نفسه "هل يخبر زوجته أم يتجاهل ما وعد به؟".. طال الليل، وطالت همومه.. لم يغمض له جفن، وظل طوال الوقت يتساءل "هل أخطأ حين دعاها، وهل أخطأتْ عندما وافقت!.. أم أن أهذا ما يسمونه فترة المراهقة الثانية!.

تجاهل شرطها، وقبل الموعد أسرع إلى استراحة الشلال، دخل صامتاً هادئاً، جال بنظره عبر الاستراحة.. تماوجت الأضواء الخافتة، وانسابت الموسيقى في أذنيه من السقف والجدران.. اتجه إلى ركن جانبي يحلو لعشاق الهدوء والصمت والتأمل، وجلس.. نظر إلى ساعته وحدّث نفسه، "لم يحن وقت مجيئها بعد.. هو الذي استبق الموعد بأكثر من ساعة".. شعر بالفراغ، أجال نظره ثانية في المكان وراحت عيناه ترقب المارة وتلاحق السيارات في الشارع العريض.

حدّث نفسه ثانية "ما أصعب لحظات الانتظار".. وراح يتذكر لقاءه الأول معها عندما التقاها ذات مساء في بيته بضيافة زوجته.. بدا له إنه يعرفها منذ زمن طويل.. هادئة كانت وصامتة، بدت ابتسامتها حزينة، وفقد وجهها الأبيض الجميل نضارة الحياة.. قدمت زوجته القهوة وجلس ثلاثتهم يتحدثون عن العمل وهموم الحياة.. قال لزوجته:

- أنا لم أتعرف على ضيفتك بعد..

أجابت بثقة: "زميلتي في العمل، وهي بمثابة شقيقتي".. ثم نظرت إليها وأضافت "العمر قصير، والحياة لا تستحق كل هذه المعاناة".

ردت بصوت متهدج يشبه الهمس:

"مأساة هي الحياة".. ومسحت دمعة طفرت من عينيها.

قالت زوجته: "أنتِ تتألمين فعلاً".

أجابت بصوت حزين: "أتألم من معاملة الناس لي، ومن نظراتهم.. نظرات الناس للمرأة الأرملة تلسع مثل النار، وتقرص مثل العقرب".

قاطعها مخاطباً زوجته: "واضح أن صديقتك أديبة، ومع ذلك لم أتعرف علي أسمها بعد!".

قالت زوجته: "اسمها في عينيها"، ولزمت الصمت.

شعر أنها تدعوه للنظر إلى عينيها، غض بصره ونظر إلى زوجته.. ابتسمت زوجته وقالت "ألم تعرف بعد!".

قال: هي لغز إذن.

- لا، دمعة.

بُهت، صمت لحظة ولم يفهم شيئاً.. أضافت:

- دمعة، اسمها دمعة.

غابت دمعة بعد تلك الليلة لفترة طويلة، ومع ذلك ظلت دمعتها مرسومة في ذاكرته كوشم، ولم يغب وجهها عن مخيلته منذ لقائهما الأول.

تراءت له من بعيد بنفس الفستان الأحمر الذي شاهدها فيه أول مرة في بيته.. خُيّل له أنه يسمع دقات قلبها قبل وصولها، أحس بقلبه يخفق مثل طائر مذبوح.. رمقها ورمقته من خلال نظارتها الشمسية السوداء.. ابتسم، بادلته الابتسامة، وقبل أن تجلس قبالته سألته عن زوجته.. قال صراحة أنه فضل ألا يخبرها لانشغالها بالأولاد.

شعر أن الابتسامة مثل لغة الموسيقى، ليست بحاجة إلى ترجمة.. تفاهما بالابتسامة دون أن ينطقا كلمة واحدة.. ران الصمت على المكان.. تذكر عائلته، وأخذ يوازن بين متطلبات وتكلفة تلك الابتسامة، وبين ما يملك من نقود ثمن الدواء الذي طلبته زوجته لابنته المريضة قبل خروجه من البيت.

تناسى ما فكّر به وغاص في الابتسامة متهرباً من شواطئ أسئلته.. شدته ابتسامتها كأنما شفتيها وردة حمراء تفتحتا عن رائحة زكية عبقت في أرجاء المكان، همس في قرارة نفسه "كل ابتسامة تخبّئ تحتها أسرار من معاني القلب المعقّدة".. أيقظته من

كـابوس أفكـاره، قالـت "لا أريـد قهـوة، اسـتبدلتُ القهـوة بمشـروب بارد".

طلـب كأسـين مـن عصـير البرتقـال، وبـلا مقـدمات نظـر إلـى وجهها وراحت يده تلاحق يدها.. كظمت غيظها وجاملته بابتسامة ثانيـة، وفسـحت لـه المجـال ليـداعب أصـابعها.. قـال فـي أعماقـه "خسارة أن تكون بلا زوج يغدق عليها الحب".

دق جرس هاتفها النقال.. أسرعت وفتحت الخط، ابتسمت وهي تتحدث، تماوجت الألوان علـى صـفحة وجههـا، وأسـبلت جفنيهـا وهي تُمسك بهاتفها النقال، قالت "طبعاً أنا لم أغيّر رأيي وما زلت أنتظر، إلى اللقاء"، وأغلقت الخط.

طافت طفلة تبيع الورد الملون، في عينيهـا جمـال أخـاذ وضـوء مشع.. قدمت لـه وردة حمـراء، أخـذها ونقدها ثمنهـا، وقدمها مـع ابتسامة خفيفة لدمعة.. تأملت الوردة وقالت:

- وماذا بعد الوردة!.

شعر أنها ألجمته في جملتها.. لم يتوقّع صراحتها، أضافت:

- أنا صديقة زوجتك، وأحببت أن أجاريك.. أنا لست من ذلك النوع.. ألم أقل لك أن كل الرجـال يفكّرون بعين واحدة.. ونقرت بإصبعها على يده.

مثل تماس كهربائي سرت قشعريرة في جسده، سحب يده وأسند ظهره إلى الخلف على المقعد، تصبّب جبينه عرقاً، وقال بارتباك:

- وهل بدر مني ما يستحق هذه التساؤلات؟.
- لا، لكن أحببتُ أن أذكّرك فقط.

لم يجب.. راح يغالب أحاسيسه، حاول أن يرفع رأسه فلم يستطع النظر في عينيها، كأنما أثقلته هموم الزمن.. حاول أن يتكلم، شعر بنفسه كمن يستل كلماته من بئر عميق.. قالت:

- أنظر في عينيّ.. هل ترى شيئاً؟.

بثقل الأفكار التي كان يحملها تلك اللحظة رفع رأسه.. حدّق في عينيها، لم ير فيهما دموع.. وعكست نظارتها الشمسية السوداء صورة زوجته تتقدم من خلفه، لم يصدّق.. نظر إلى الوراء، هاله منظرها تقف أمامه مباشرة.. ذُهل، بدا وكأنه يسقط في بئر ليس له قرار.. وقف.. قالت دمعة:

- أنا أخبرت زوجتك ودعوتها لهذه الجلسة، كنت متأكدة أنك لن تدعوها، أحببت أن أفاجئك.

تصبّب العرق من جبينه وهمس: أية مفاجأة هذه!؟.

قالت: لم أشأ أن أكون دمعة في حياتك.. يكفيك ابتسامة زوجتك وطيب قلبها المتسامح.

تلعثم.. غارت الكلمات وتوقفت في حنجرته.. هاجمته نظرات العيون التي تلسع وتقرص، طوّح بثقله على المقعد وراح يرقب المشاة في الشارع العريض.

****

جريدة الدستور ٢٠٠٩/١٢/٢٠م

أحـلام ملونـة

بآهات قليلة اجتازت سن اليأس، تقبّلت عيد ميلادها الخمسين بإطفاء شمعة واحدة.. للمرة الأولى تشعر بعذاب الوحدة وتحس بقسوتها، رغم كثرة الناس وعدد الأحياء والأموات، ورغم عدد الطالبات في مدرستها التي تعمل فيها منذ ربع قرن.. أجيال عديدة تخرّجت، الكثير من طالباتها أصبحن محاميات أو طبيبات أو مدرسات، وربات بيوت، تزوجن وأنجبن بنيناً وبناتاً، هي وحدها التي لم تنجب في هذه الدنيا، فضّلت الوحدة وخدمة والديها على الرجل الذي تقدم لخطبتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً.. لا تدري كيف تذكّرته هذه الليلة، هو نسيها، أما هي فما زالت تذكر ملامح وجهه.. قبل ثلاثة أعوام قرأت في إحدى الصحف المحلية عن حفلة زفاف ابنه.. " الأيام تمر سريعاً، ما أن يلج المرء باباً حتى يخرج من الباب الآخر".. حدّثت نفسها، وأضافت " الموت أهون من الوحدة".

عتمة الحياة سادت البيت بعد رحيل والديها منذ أعوام خلت، شعرت أنها تعاني آلاماً لا قبل لها عليها، أغمضت عينيها وراحت في سكون الليل تفترش أوجاعها.. تذكّرت أوراق الامتحانات، قامت بصعوبة وأضاءت المصباح، انكبّت على الأوراق تصحيحاً.. إنها تحفظ أجوبة المادة التي تُدرسّها عن

ظهر قلب، شعرت بصداع في رأسها، حدّثت نفسها " إنها النظارات اللعينة"، تحاملت على نفسها وألقت بجسدها المترهل على سريرها، صرّ وأخرج أنيناً فاق أوجاعها، " آه، نسيت أن آخذ حبة الضغط، لعنة الله على الشيطان".. قامت ثانية، ابتلعت الحبة وشربت خلفها جرعة ماء، ألقت بنفسها ثانية على السرير، تذكّرت حبة الدواء الخاصة بتمييع الدم، حبة الدواء الخاصة بالقلب.. تأففت، حوقلت، وأغمضت عينيها في السرير.

في السابعة صباحاً أغلقت خلفها الباب، وأسرعت تحث خطواتها تجاه مدرستها القريبة.. كانت الطالبات يضبطن ساعاتهن على موعد وصولها، لم تتأخر يوماً عن الدوام ولم تغب يوماً، تبدأ دروسها بنشاط، وتنهي دوامها أيضاً بنفس القوة والثبات.

لا تدري لِمَ بدا لها ذلك النهار مملاً، تساءلت في سريرتها "ماذا يضير الوزارة لو كرّمتها قبل تقاعدها أو قبل موتها!".. حسمت الجواب سريعاً، " لا، ما زال الوقت مبكّراً على التقاعد، أنا ما زلت قادرة على العطاء، ما زلت قادرة على أن أعطي حُباً كما أعطي دروسي، بالحب يحصل الإنسان على السعادة، السعادة أفضل تكريم في حياة الإنسان".

أحسّت بالتعب، شعرت أن نشاطها مفتعل، تحت جلدها يعيش السأم كما يعيش التجدد.. نظرت إلى السبورة السوداء، شعرت أن اللون الأسود يظلّل حياتها، يفصل النور عن عينيها، لون متأصل في أعماقها، يسرق منها الحب الذي حرصت على اقتنائه دائماً في صدرها.. أحسّت بذبول المرأة في جسدها وفي خريف عمرها، ترنحت وكادت تقع على الأرض أمام طالبات الفصل، اتكأت على المنضدة، تابعت الحصة بكلمات بسيطة ومتقطّعة..

"الأرض بعد أن تتجدد وتزهر، تجف وتصاب بالاصفرار"..

صمتت لحظة، أضافت:

"المرأة هي الحياة بتغيّرها وتجهمّها، بتجدّدها، بانقباضها وانبساطها ".

رفعت إحدى الطالبات يدها، سألت:

- ما سر العلاقة بين الأرض والمرأة؟.
- هل قلت المرأة أم الأرض!، وماذا في ذلك، سؤال مهم يستحق الإجابة، المرأة تشبه الأرض، إنها تحمل معها تضاريس الزمن والعطاء..

أحسّت أنها تتحدّث عن نفسها، توقّفت عن الشرح، طلبت من الطالبات متابعة القراءة بصمت، وتكوّرت كطفل في رحم أمه

على المقعد.. تلاحقت الكلمات والصور في أعماقها "الأنثى كالزهرة، حين تجف الزهرة تسقط، والناس لا ينظرون إلى الزهرة الذابلة".

استأذنت طالبة وعلّقت:

- الأرض تعشق الجمال كالأنثى تماماً، الأرض تحب الربيع الدائم، دورة الطبيعة مستمرة، خريف وربيع، شتاء وصيف، أما المرأة فكيف تتجدّد، إنها تخشى على جمالها من الذبول، حين تكبر المرأة تصاب بالهلع.

تضاحكت بعض الطالبات، شعرت الطالبة بالإحراج، جالت بنظراتها في وجوه الطالبات تستوضح الخلل من عيونهن، وقفت المعلمة، ران الصمت على الصف، نظرت إلى الطالبات، قرع الجرس معلناً انتهاء الحصة الأخيرة، لم تتفوّه بكلمة، جمعت أوراقها، وخرجت من الفصل.

في طريقها إلى البيت سارت بتمهّل، أحسّت بالتعب لأول مرة، وما أن أغلقت الباب على نفسها في البيت حتى واجهتها المرآة، وقفت أمامها وأخذت تتمعّن في وجهها، صدى كلمات الطالبة ما زال يرن في أذنيها "حين تكبر المرأة تصاب بالهلع"، لأول مرة تتأمل وجهها وترى التجاعيد وخطوط الزمن الذي سرق من وجهها نضارته، راحت الأفكار الأنثوية تجتاحها، تذكّرت أيام

الصبا، بدا لها وجهها أجمل من الربيع في ذلك الوقت، كانت بسيطة وذكية، منبسطة كالسهل، منسابة كالنهر، هائمة كالريح.. كثيراً ما كانت تتوق للحب والإطراء.. تمعّنت في المرآة ثانية، شعرت أن جمال وجهها الذابل يفتقر إلى رقة الأنثى، حدّثت نفسها "النضارة والسحر لا تساوي شيئاً أمام حرارة المشاعر ورقة الأنثى، إن ما يجذب الرجل الحنان والرقة ودفء المرأة.. الزهرة بدون رائحة كالمرأة الجميلة بلا عواطف، كالوجه الجميل دون سر".

أقنعت نفسها بهذا المنطق، " لكي تمتلك شيئاً، فلا بد أن تفقد سواه"، تساءلت "ما الذي بقي لي، وماذا أمتلك في هذه الحياة!؟".. همست وكأنها تحدث نفسها "سامحك الله يا والدي".

شعرت أنها فقدت كل شيء، إنها تكذب على نفسها، تساءلت، ماذا حققت لنفسها في هذه الدنيا!، الناس يطلبون العظمة ويتوقون إلى الثروة والنفوذ والشهرة، يظنون أن الوصول إلى العظمة يعني الوصول إلى حلاوة الدنيا دون مرارتها، لكن لا يمكن أن يقسموا الأشياء ويحصلون على الطيب بمفرده، تماماً كاستحالة النور من دون الظل.

حدّثت نفسها ثانية "ما هذا الهذيان"، أغمضت عينيها لحظة، شعرت أن قلبها ينبض بتسارع وعنف، تراخت أعصابها

وأعضاؤها، أسرعت وابتلعت حبة دواء الضغط، عادت ثانية وتأملت وجهها في المرآة، سنوات طويلة وهي تنظر إلى المرآة، لا شيء تغير، القلب ما زال ينبض، السنوات تجري، جال بخاطرها أن تنزع المرآة عن الجدار، لم تجرؤ، حدّثت نفسها من جديد "مهما ألحقت السنوات بالإنسان من علل، يبقى في صدره صوت ينادي سوف أحيا، دائماً كنت أتغلب على الصعاب، ما الذي تغيّر هذا اليوم، لا شيء، حالة إعياء وتنقضي".

قاومت رغبة الانهيار التي اجتاحت أفكارها لدقائق، دخلت المطبخ وأخذت تحضّر طعام الغداء، صنعت لنفسها فنجان قهوة، وجلست قرب النافذة تراقب المارة وتصيخ السمع للأطفال يلعبون ويتراكضون ويطاردون كرة القدم، همست وكأنها تحدّث نفسها بصوت مسموع "هذه هي الحياة، لن تتغيّر، وأنا لست المرأة الوحيدة في هذا العالم، أنا ما زلت قادرة على العطاء والحب، وحتى يحين موعد أجلي، سوف أحيا".

****

مجلة أوراق الصادرة عن رابطة الكتاب الأردنيين العدد ٢٦-٢٠٠٧/٢٧

عيون لا ترى السعادة

قبل منتصف الليل، ودون سابق موعد، اقتحم صديقه القديم مع زوجته خلوته، جلسوا يسهرون ويعيدون ذكريات الصبا والشباب.. زمن مضى ولن يعود.. كان الجو عاصفاً، ورياح كانون الباردة تهب وتضرب أسلاك أعمدة الكهرباء، وتُسمع أصوات أشبه بعويل حيوانات الغابة.. طغت برودة الجو على لهب المدفأة، وراحا يستعرضان متاعب الحياة وهمومها.

قال وقد بدا يائساً تلك الليلة أن نجمه أفل وشمسه غربت، كما طمست الغيوم معالم قمره.. وأضاف "سنوات الشباب مرّت وأنا أعيش الحياة بكل معانيها، الحب والمال والصحة.. وما كان ينقصني غير ابتسامة طفل يملأ البيت بالحياة والأمل.. تزوجت ثانية، ولا أدري كيف تغيّرت الأمور.. صحتي تدهورت وغابت لحظات الفرح.. ومنذ أكثر من سبعة أعوام والحالة المادية تزداد سوءاً يوماً بعد آخر".

كان يتحدّث كما لو كان يقرأ من كتاب.. فجأة هبّت زوجته واقفة، وقطعت حبل أفكاره، جالت بنظرها في وجهه معاتبة وغادرت الجلسة.. اكفهرّ الجو وبدا أن هناك سوء فهم.. استأذن صديقه وغادر البيت برفقة زوجته، تقوقع على نفسه، وغرق في وحدته وهمومه من جديد.

تساءل في قرارة نفسه عما بدر منه، وشحن الجو حتى تصرفت زوجته هذا التصرف.. شعر بعجز تام وهو يعيش الفراغ بكل معانيه.. عادت زوجته تحمل فنجاناً من القهوة، جلست قبالته وقالت معاتبة:

"صحيح أن زوجتك الأولى جامعية، وأنا لا أحمل غير الشهادة الابتدائية، لكني أفهم ما تقوله وما تعنيه.. إني أقدّر ظروفك، لكنك تجرحني وتُحرجني كثيراً أمام ضيوفك.. فهل حظك مال وانتكس فعلاً ولازمك الشقاء منذ أن تزوجتني كما قلت!؟، ألم تتزوجني كي أنجب لك أولاداً.. لقد أعطاك الله ما تريد خلال الأعوام التي قضيتها معي.. انظر إلى أولادك الثلاث، إنهم أفضل من كنوز الدنيا وما فيها.. وإذا كنت أنا سبب تعاستك، طلقني.. لكن لا تجرحني أمام معارفك".. وراحت تذرف الدموع..

صمت، أسئلة كثيرة جالت ذاكرته، لم يخطر بباله يوماً ما قالته زوجته.. فرغم الأحوال الصعبة التي يعيشها، إلا أن الله رزقه بما تمناه من نعيم الدنيا.. استيقظ فجأة، وتنبّه إلى الحكمة التي قالتها بغير قصد وهي تسكب النيران نوراً في أعماقه.. "الحياة أخذ وعطاء، ظل ونور، صيف وشتاء، سعادة وشقاء.. دورة الحياة متكاملة، ما أن تعطيك شيئاً حتى تأخذ منك شيئاً آخر.. فلماذا ينسى المرء لحظات سعادته ويتذكر لحظات التعاسة فقط!".

حاول أن يقنعها أنه قصد حالته المادية والصحية، ولم يقصد المقارنة بينها وبين زوجته الأولى.

تفتّرت شفتاها عن ابتسامة رقيقة، شعرتْ بالزهو والانتصار، تعالا إلى سمعه صوت آذان الفجر.. تلاشت العتمة وسطع نور روحاني في أعماقه، ولم يعد يتذكر غير بسمة أولاده وفرحهم.. كلمة "بابا" حين تنطلق من أفواههم.. عطية الإله بعد السنوات العجاف التي عاشها مع زوجته الأولى وهو يحلم بطفل يملأ عليه وحدته وبيته.

ابتسم لهذه الخاطرة وحدّث نفسه " كيف لم يفكر بالسعادة الحقيقية التي يعيشها مع هذا العطاء الذي قدّمه الخالق حين مدّ له جذور الحياة، وأنبت بذرة الخير!".

شعر أن الشباب دبّ في عروقه من جديد، قام توضأ وصلى الفجر، نظر إلى أولاده، كانوا يغطون في نوم عميق، اقترب منهم وقبلهم واحداً واحداً، وفي حجرة زوجته ابتسم لها وهمس في أذنها "اسمحي لي أن أقول لك بملء فمي أن نغماتك المجروحة هذه الليلة بددّت كل أحزان قلبي.. منك تعلّمت الحياة، وتفتّحت عيناي على ألوان من السعادة لم أشعر بها قبل هذا الليلة".

****

مجلة الكاتب الأردني الصادرة عن اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين. العدد العاشر ١٩٩٣م.

حصة في الذاكرة

أشدّ ما كان يؤسف الأستاذ خليل أن يرى طلاباً كسولين في فصله، وأشدّ ما كان يزعجه أن لا ينتبه أحد الطلاب إلى الشرح، أو لا يقوم بواجباته المدرسية.. ومع أنه لم يلجأ يوماً إلى معاقبة الطلاب جسدياً، إلا أنهم كانوا يضطرونه لتأنيبهم أمام زملائهم الآخرين.. ولا يذكر إلا حالات نادرة قام فيها بمعاقبة الطلاب جسدياً.. ومع أن بعض زملائه المدرسين كانوا يهدّدون الطلاب بحسم علاماتهم، إلا أنه لم يحسم يوماً علامة واحدة من علامات المادة التي يدرّسها، رغم تهديده لهم.. فطلابه كانوا كأخوة له أو أبناء.

سنوات طويلة مرّت دون حوادث تذكر.. حادثة واحدة ما زالت محفورة في ذاكرته رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً على انقضائها.. يومها كان يعمل معلّماً في إحدى القرى في بلد مجاور، وما زال حتى هذه الساعة يعيش ساعاتها الرهيبة لحظة بلحظة.. يذكر ذلك اليوم جيداً، ويذكر أن مدرّس مادة الرياضيات للصفوف الابتدائية كان غائباً ذلك اليوم، وكان عليه أن يلج أحد فصوله أثناء راحته.. شعر أن أحداً منهم لم يفهم شيئاً مما يقوله أو يعيده على مسامعهم.. كانوا يعيشون لحظة خوف، وكأن على رؤوسهم الطير، ولم يكن يعلم أنّ حضوره يخيفهم ويربكهم إلى

هذا الحد.. أجال نظره في وجوههم.. بدت صفراء شاحبة.. واحد فقط من بينهم لم يكترث له، وراح يهمس في أذن زميله على المقعد.. تمشّى الأستاذ حتى وقف بجانبه.. طلب منه الوقوف.. لم يأبه الطالب لأوامره، ظل يثرثر بكلمات بدوية لم يفهم منها الأستاذ كلمة واحدة.. تهامس الطلاب وتضاحكوا.. جال الأستاذ بنظراته في وجوههم، فعادوا لهدوئهم ولم ينبس أحدهم ببنت شفة.

ثانية طلب الأستاذ من الطالب الامتثال لأوامره والوقوف.. لم يأبه له الطالب.. شعر أنه يستفزّه ويثير غضبه.. سأله عما قاله حتى أضحك طلاب الفصل جميعهم، لم يجب.. اجتاحت كيان الأستاذ ثورة عارمة، وردد في قرارة نفسه "أن يكون بعض الطلاب مشاغبين فأمر محتمل.. وأن يكون بعضهم كسالى، فهذا يدعو إلى القلق.. أما أن يكون الطالب مشاغباً وكسولاً في آن.. فهذا أمر صعب، يستعصي على المعلّم تحمّله".. ولا يدري كيف انفعل وصفع الطالب على وجهه صفعة قوية وقاسية.. ترنّح الطالب وكاد يسقط أرضاً، ومع ذلك لم يجب.. لطمه ثانية.. فجأة شحب وجه الطالب وتغير لونه، انتفخت أوداجه، وبدأ يبكي بكل أحاسيسه ويصرخ بأعلى صوته.

طلب منه الصمت، لم يستمع.. تعالت صرخات الاحتجاج من الطلاب.. كبح المعلم جماحهم وخنق أصواتهم بنظراته.. تلاشى صوت الطالب أيضاً.. اختنق في حنجرته.. عاد هدوء الصحراء

إلى الفصل.. تهالك الأستاذ على المقعد وشعر بالندم.. تساءل "ألم يكن هناك وسيلة أخرى يعالج بها الموقف؟!".

خرج عن موضوع الدرس، أخذ يضاحك الطلاب ويسرّي عنهم، وفي الواقع كان بكل جهده يحاول ألا يتسرّب الخبر خارج الفصل.. مازح بعضهم، وحاول أن يعيد شرح الدرس.. انتقى أحدهم وطلب منه أن يحل مسألة كان قد توقّف عندها سابقاً.. لم يعرف.. أوقفه جانباً وشرع بحل السؤال أمام الطلاب.. سألهم إن كانوا قد فهموا الشرح!، علت أصوات بعضهم بالإيجاب.. ولشعوره بالذنب تجاه الطالب الذي صفعه، طلب منه أن يعاود حل المسألة على السبورة من جديد.. كان الطالب مرعوباً، وقف يرتجف، طمأنه الأستاذ وابتسم له، حملق الطالب في السبورة.. تناول الطبشورة وحاول أن يكتب.. رسمت يده خطاً مائلاً طويلاً.. ارتبك ونظر إلى المعلم بخوف، تماسك واستند على الجدار.. سأله عما به؟.. أجاب أنه يحاول أن يتذكّر.. نظر إلى المعلم ثانية.. اتّسعت حدقتا عينيه.. جحظت عيناه وكادتا تقفزان من محجريهما، فجأة تطوّح جسده وسقط على الأرض محملقاً في فضاء الفصل بلا حراك.

أسرع الأستاذ نحوه، صرخ أحد الطلاب، تسمّر بعض الطلاب في مقاعدهم وهرول الباقون خارج الفصل.. عمّت الفوضى المكان.. شعر الأستاذ أن الصراخ يأتي من كل طلاب المدرسة لا

من فصل واحد.. لم يعد يفهم شيئاً.. صوت واحد كان يصرخ في أعماقه " أنت السبب، ضربته وقمعت حريته، خنقته، منعته من البكاء والتعبير عما يجيش في صدره".

متاهة من الكوابيس غزت أفكاره تلك اللحظة.. شريط مصوّر وملتبس أفقده وظيفته وقاده إلى السجن وضيّع مستقبله.. علامات الاستفهام تداخلت وتزاحمت إلى ذاكرته وهو يحاول أن يعيد الطالب إلى وعيه.. وكما تنتشر النار في الهشيم أنتشر الخبر في المدرسة.. اندفع مدير المدرسة والمدرسون داخل الفصل، صرخ أحدهم "هل مات الطالب!".. فقد الأستاذ النطق والسمع.. سارع أحد المدرسين وبلّل وجه الطالب بالماء.. مرّت الثواني كالساعات.. تحرّك الطالب وصحا من غيبوبته.. وعلّل أحد المدرسين أن هذه الظاهرة ناتجة عن سوء التغذية، وعدم اهتمام الأهالي بأبنائهم.. ومع ذلك ظل شيء يهز الأستاذ من أعماقه، يتهمه ويلقي عليه اللوم.. ومع أن المدير تغاضى عما سمع من الطلاب، إلا أن أحد المدرسين علّق ساخراً "كان الله في عون الأستاذ إذا عرف أهل الطالب ما حدث معه".

بعد دقائق استعاد الطالب وعيه تماماً، وعاد إلى مقعده.. فوجئ الأستاذ بالطالب الذي كان يجلس بجانبه قد انتقى مقعداً آخر وجلس عليه، سأله عما دفعه لهذا التصرف، أجاب الطالب أنه يخاف من الموت، ويخاف أن يموت الطالب على مقعده.. نظر

الأستاذ إلى الطالب، شاهده في سبات نوم عميق.. أيقظه، وبوده لو يغادر الفصل ولا يعود إليه ثانية، لكنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام هذا الطالب الذي أثقل كاهله وحدد مستقبله.. طلب منه أن يحمل حقيبته ويغادر الفصل إلى بيته، وأوصى أحد الطلاب أن يرافقه، ويخبر أهله بأنه وقع في الفصل، وعليهم أن يعرضوه على طبيب.. وأخذ ينتظر أوبة الطالب المرافق بفارغ الصبر.

قرع الجرس معلناً انتهاء الحصة السادسة وانتهاء الدوام المدرسي لذلك اليوم، ولم يظهر الطالب المرافق بعد.. كان الأستاذ يرقب باب المدرسة الخارجي وينتظر هجوم أهل الطالب بعصيهم على المدرسة.. أحداث مماثلة مرّت.. أحد المدرّسين صفع أحد الطلاب على وجهه، قال والده إن المدرّس مزّق طبلة أذن ولده وأفقده السمع، العين بالعين والسن بالسن والأذن بالأذن والبادئ أظلم، أو يدفع ديّة الأذن.. وحين عرضوه على الطبيب، تبيّن أن الطالب لا يسمع منذ سنوات طويلة..

طالب آخر ضبطه أحد المدرّسين وهو يدخّن في الفصل، طلب ولي أمره، وعندما جاء والده هدّد الأستاذ قائلاً "أنت عليك تدريس الطلاب، وما عليك بتصرفاتهم، ولدي حر يدخّن أو ما يدخّن، أنت ما عليك منه".

جاء دور الأستاذ خليل.. أية تهمة، وأي عقاب ينتظره!.

عند باب المدرسة الخارجي شاهد الأستاذ الطالب الذي أوصل زميله جالساً على حجر.. أسرع إليه وسأله عما قال أهل الطالب.. أجاب إن والده يقول أنه لا يحتاج إلى طبيب.

استوضح الأستاذ الأمر ثانية، وعندها جاء الجواب بارداً كالثلج "يقولون بأنهم تعوّدوا على هذه الحالة، فمنذ طفولته وقع وارتطم رأسه بحجر وهو يرعى الغنم.. ويصحو كل مرة بعد خمس دقائق من غيبوبته".

****

مجلة الكاتب الأردني/ العدد التاسع ١٩٩٣م

للبيوت أسرار

كثيراً ما سمع أبو أحمد صراخ جارته، وكثيراً ما وسوس له الشيطان أن يعرف سر المشاحنات بينها وبين زوجها، وكلما هم بذلك، تراجع وحدث نفسه أن للبيوت أسرار.. أما تلك الليلة فقد وجد نفسه وسط أتون المعركة.. كانت تصرخ وتطرق باب بيته بعنف بعد منتصف الليل.. فتح الباب، اندفعت داخل بيته تقول:

- أنا في حمايتك يا أبو أحمد، أجرني أجارك الله، أنقذني من زوجي.

ظهر زوجها خلفها مباشرة غاضباً وحاول إمساكها، وقف أبو أحمد في وجهه قرب الباب، صرخ على زوجته وهي تندفع داخل بيت أبي أحمد:

- عودي يا بنت الكلب إلى البيت ولا تفضحينا أمام الجيران.

هدأ أبو أحمد من ثورته، وأدخله غرفة الاستقبال، وطلب من زوجته أن تُبقي جارتها في الغرفة الداخلية حتى يصلح الأمر، ويعيد المياه إلى مجاريها.

قال جاره أن زوجته تغار من ثيابها، ودائماً تشك في تصرفاته حتى صار يشكّ في نفسه، ابتاع لها أجمل الثياب وأحضر لها أفخر المأكولات، جعل منها ملكة في بيتها، ومع ذلك تتهمه

بالخيانة، وأضاف " قررتُ أن أطلّقها، لا أريدها ولا أريد أن تعود إلى بيتي".

في الحجرة الداخلية قالت جارته أنه دائماً يهددها بالطلاق، ودائماً يفر منها إلى امرأة أخرى، ترى ذلك في عينيه، وفي تصرفاته، في كلماته وفي نمط حياته، دائماً هناك امرأة أخرى يشبّهها بها، وأضافت "أريده أن يراني كما أنا، وليس مثل النساء اللاتي يرافقهن ويسهر معهن حتى الفجر، لقد مللتُ من تصرفاته، لا أريده ولا أريد العودة إليه".

أقسم الجار أن زوجته كاذبة، وإنها لن تدخل بيته ثانية.. وبدورها أقسمت إنه كاذب ولن تعود إليه.

قبل الفجر بقليل جمعهما أبو أحمد معاً، تقابلا بنظرات تنم عن حقد وكره، شعر أن العداء تأصل في نفسيهما، ولا يمكن العودة إلى الوراء.. نظرا إلى بعضهما وراحا يتعاتبان، بدت نظراتها كعاصفة حطّمت كل زوارقه وخلجانه، واخترقت قلبه كسهام نارية، ومع ذلك صمد كل منهما على موقفه ولم يتراجع قيد أنمله.. تبادلا ثانية غضباً ملوناً بألوان الحزن واليتم والطلاق والحرمان، وضياع ابنهما الوحيد الذي لم يتجاوز عامه الثاني.. ومع مداخلات جارهما أبي أحمد وإصلاح ذات البين بينهما..

انقشع الضباب، وبدءا يريان الحقيقة بوضوح أكثر، وراحا يتبادلان جملاً مجروحة..

قال لزوجته ملاطفاً "هيا يا حبيبتي، لنعد إلى البيت".

أجابت بدلال: "لقد جرحت مشاعري هذه الليلة، ولا تقل إن شكوكي عمياء.. فأنت ترى فيّ امرأة أخرى بعد أن نعتّني هذه الليلة بالساقطة".

همس في أذنها: "أنا بأمس الحاجة لمن يُذكّرني بأخطائي هذه الليلة".

تفتّرت شفتاها عن ابتسامة نصر، قالت: "في قرارة نفسي أعرف أنك حرّي وبردي، وإنك كل زمني، وإلا فلمن ألبس أجمل الثياب!، وأتزيّن هذه الزينة!، لكنك ظالم وبليد".. وابتسمت..

فجأة توقفا عن الكلام.. تأبط ذراعها وانسلاّ من بيت أبي أحمد، وكأن شيئاً لم يكن.

في ليلة تالية، وبينما كانت جارته تسهر في بيت والدها، شاهد أبو أحمد من عين الباب السحرية زوجها يتمشى على رؤوس أصابعه، وتتسلل معه امرأة أخرى أقل جمالاً وأسوأ حظاً من زوجته، ولطيب زوجته ومدى ثقتها بزوجها لم تعد إلى بيتها تلك الليلة.

****

عمان ١٩٨٥/١١/٥م

شـهادة

جمعت منـال كتبهـا وأوراقهـا المدرسـية وانـزوتْ فـي غرفتهـا.. أشعلتْ النور وراحت تتأمل أشلاءها، وتستعيد إرهاصات عامين لـم يحتسـبا مـن عمرهـا.. كانـت تحلـم بـامتلاك الشـهادة الثانويـة العامـة، الالتحـاق بالجامعـة، قيـادة سيارة، وظيفـة محترمـة، زوج محتـرم.. لكنهـا رسـبت فـي المـرة الأولـى، وأخفقـت فـي المـرة الثانية.. شعرت بانهيار أحلامها وفقدت الأمل في المستقبل.

تفرغت للمطبخ وغسيل الملابس، ومـا أن تنتهـي مـن تنظيـف البيت حتى تنعزل في غرفتها، وتغلق الباب على نفسها.

تـذكرت مـا قالـه لهـا والـدها ذات صـباح "إذا كنـتِ راغبـة فـي النجـاح، فعليك أن تسـعي وراءه، إن الضـمان الأكيـد للسـعادة هـو النجاح، أما الخيبة فعاقبتها التعاسة المطلقة".

عند المساء، جلست على طرف المقعد مثل كتلـة مشـدودة وقد أحاطت وجههـا بيديها وانغمسـت بالبكـاء.. اقتحم والـدها خلوتهـا، صدمه ما رأى، اقتـرب منهـا بحذر، لمس كتفيها وقـال "مـا الـذي حدث!".. مسحت دموعها وتنهّدت، ومع ذلك لم تستطع أن تخفـي النظرة الحزينة المتعبة التي لاحت على ملامح وجهها.. قالت:

- لا شيء، لا شيء مهم يا والدي.

نظر في وجهها مباشرة.. أردفت:

- أشعر بالفشل، فأنا لست مؤهّلة لاجتياز امتحان الثانوية العامة مرة أخرى.
- فشلك مرة أو مرتين لا يعني نهاية الحياة.. بالإصرار والتكرار يمكنك النجاح. قال لها يشد من عزيمتها.
- كلا، لم يبق وقت كاف للامتحان، أشعر بخيبة أمل وهزيمة منكرة.. قالت ذلك وهي تشعر بمنتهى الكآبة.
- أنتِ ترهقين نفسك بهذه الأفكار.. تشجعي وكرري المحاولة.. إن قوتك الحقيقية تصدر من نفسك، النجاح لا يأتيك من الخارج.. ليست القوة المطلوبة قوة عضلات، إنها تصميم الإرادة والعزم على النجاح.

كان يتحدث ويأمل أن يجد نجاحاً حيث وجدت إخفاقاً، قالت:

"كنت دائماً أقول إن بإمكاني تحقيق أي أمر أركّز جهدي عليه، وما زلت أظن ذلك ممكناً في معظم الأمور، لكني لا أقدر على إثبات وجودي في هذا الامتحان بالذات".

أدرك والدها مدى تألمها والإرهاق الذي يتملكها، وشعر بعجزه عن أداء أية مساعدة رغم خبرته وعمله في مجال التعليم ومحبته لها، فجأة أحس بشيء في داخله يتحرّك.. دنا منها وطوّقها بين ذراعيه.. دفنت وجهها في صدره وانفجرت بالبكاء.. لم ينبس

ببنت شفة.. عرف أنه يفعل ما يجب وما بإمكانه فعله تلك اللحظة، وكان ذلك كافياً.. شعر بالعواطف المتأججة في صدرها، وفهم للمرة الأولى مدى ضعفها ومقدار حاجتها إليه.. همس في أذنها "الفشل لمن يملك الإرادة هو أساس النجاح.. أنا واثق إنك تملكين الإرادة القوية.. ولم أنس يوماً محبتي لك رغم الغضب الذي صببته عليك يوم أخفقتِ في المرة السابقة".

انهمرت الدموع من عينيها ثانية، التصقت في صدره وشعرت بالحنين المتأجج داخله.. وبدوره أحس ببعض الصعوبات التي تواجهها في دراستها، وظنّ أنها ستكون شاكرة إن قام أفراد الأسرة بالأعمال البيتية بدلاً منها.

قالت شقيقتها الكبرى وكأنها في موقف الدفاع عن نفسها "إني أعمل ما فيه الكفاية"، فقال والدها بهدوء:

- أعلم ذلك، وقد يكون عليك أن تعملي أكثر.. تذكري أن في نجاحها سعادة لها ولنا جميعاً.

وقالت والدتها المريضة أنها على استعداد أن تقوم بكل أعمال البيت حتى تتفرغ منال لدراستها.

شعرتْ منال أنها ولدت من جديد.. راحت تدرس بانتظام.. وغدا والدها كلما مرّ أمام غرفتها مساء ينتابه شعور جديد إذ يسمع صوتها منكبة على الكتب.. أدرك أن هناك أموراً تجري

أكثر من قضية فتاة تحاول النجاح ونيل الشهادة.. ومع ذلك لم يتبادلا الحديث ثانية عما جرى ذلك المساء.. وحين اجتازت الامتحان بنجاح عرفت أنها كسائر الناس.. الحياة أصبحت أبسط كثيراً عندما أدركتْ إنها مثل الآخرين.. ابتسمت وتقدّمت من والدها وقبّلته.. نظر إليها والابتسامة تملأ وجهه ولم ينطق بكلمة.. قالت: كم أحبك يا والدي.. فأنت بقلبك وحبك دفعتني للنجاح يوم أن طوّقتني بذراعيك تلك الليلة، أما ابتسامتك فكانت أجمل شهادة حصلت عليها في حياتي.

طوّقها بذراعيه ثانية وقال "مبروك"، وانهمرت الدموع من عينيه، وانتابه شعور عميق بالندم على إخفاقه بكبت عواطفه تجاه أبنائه طوال الأعوام الماضية.

***

جريدة الرأي ٢٠٠٢/٦/١٨م

صورة العمر

اندفعتْ داخل المحل، تلهث وتلوح بورقة نقدية حمراء من ذات الخمسة دنانير، وكأنها شارة نصر وفرح.. امرأة في العقد الخامس من عمرها، ترتدي الزي الفلسطيني المميّز بحريره المزركش وأكمامه الطويلة، متوسطة الطول، ناحلة الجسم.. بدت التجاعيد واضحة على معالم وجهها، وخصلة من الشعر الأبيض تتدلى قرب عنقها تحت المنديل الذي يغطي رأسها.. باستغراب ودهشة نظر إليها، أضافت بتساؤل وكلمات الفرح تتراقص على شفتيها المرتعشة:

- هل سجّلت حفلة تخرّج طلبة الجامعة؟ ابني تخرّج.. سلّمه جلالة الملك الشهادة بنفسه.. هل رأيته؟.. إنه في الحفل الذي بثه التلفزيون الأردني هذا اليوم.

كانت كلماتها تندفع كشلال، ولم تتوقف بين جملة وأخرى إلا لالتقاط أنفاسها.. لا تدري أيهما تسبق الكلمة أم الفرحة.. لا يستطيع أن يتذكر.. لوّحت له بالورقة الحمراء ثانية:

- إذا ظهر ابني على الشريط خذها كلها، وأعطني الشريط.. في البيت ينتظرني والده وأخواته.. الجيران لا يصدقون أن ابني تسلم الشهادة من سيدنا.. نعم الشهادة الجامعية.. الله يخليك يا ابني، رأيته على التلفزيون، وقال لي ابن الجيران

أن صاحب محل الفيديو سجله على شريط.. أين الشريط.. ضعه في الفيديو.. أريد أن أراه مرة ثانية.. أرجوك.

كلمات العجوز لم تتوقف.. نهر من الكلمات تدفّق وسرى في عروق صاحب المحل مخلّفاً قشعريرة في جسده.. تذكّر فرحة والدته يوم نجاحه في الشهادة الثانوية.. زغردت ولمّت جاراتها ووزّعت الحلوى، قالت إن فرحة النجاح لا تقدر بثمن.. توقّف عن ترتيب أشرطة الفيديو على رفوف المكتبة، وبكل حواسه أصغى إليها وانتبه لكلماتها.. كان لا بدّ له أن يتحرك، أن يعمل شيئاً أمام هذا الدفق من الكلمات الشفافة، وهي تنقله إلى لحظة فرح عاشها قبل أكثر من عشرين عاماً..

قال: "اطمئني يا حاجة، لقد سجلته عن البث التلفزيوني مباشرة أثناء العرض".

قالت بإلحاح: "أرجوك يا ولدي، أرني إياه".

تناول الشريط وألقمه جهاز الفيديو، بدت الصور تظهر متلاحقة على شاشة التلفاز.. اقتربت المرأة من التلفاز، وراحت تنظر بتمعّن، تحدّق، تحدّث نفسها، ترتجف، تستعجل المناظر، تحاول الوصول إلى التلفاز متخطية "كاونتر" الخشب الذي يفصلها عنه عدة أمتار.. همست بصوت مسموع.. " لقد انتهت سنوات القحط التي عشناها، كنت يا ولدي أنام بلا عشاء

لأطعمه.. إنه أملنا في هذه الدنيا.. هذا مدرج الجامعة.. نعم.. آه قد نسيت.. هذه الدفعة!.. لا، ليست هذه الدفعة، الدفعة التي بعدها دفعة الأطباء وبعدها دفعة المهندسين.. ولدي بعدها بدفعتين، دفعة التجارة.. فرع المحاسبة.. اختار هذا التخصص لأنه يحب الحساب.. أتعرف لماذا يحب الحساب!.. عندما كان يأخذ المصروف من والده، كان يحاور القرش صعوداً ونزولاً، يميناً ويساراً، يناجيه حتى يستر حاله أمام زملائه في هذا الزمن، زمن الفقر والجوع.. يقوم بعمليات حسابية معقدة.. هذا سبب اختياره لهذا التخصص".

وسط هذا الزحام الفكري، دلف المحل رجل بصحبة امرأة جميلة، متبرّجة، وكأنها خارجة لتوها من صالون تجميل السيدات.. سألت السيدة صاحب المحل عن فلم أمريكي ذكرت اسمه.. أحضره لها، تناولته وراحت تتأمل ألبوم صور الأفلام.. دلف مكتبة الفيديو زبائن جدد، وأنهمك الجميع بالبحث عن أفلامهم المفضلة دون أن يعيروا المرأة التي ما زالت تتحدث عن ابنها وتتابع شريط الفيديو أي انتباه.. قال لها صاحب المحل معتذراً:

- انتظري يا أمي حتى أنتهي من الزبائن.. راقبي الشريط، وعندما يظهر ابنك على الشاشة، أشيري إليه لتتأكدي إنه ضمن حفل التخرج.

ترك الزبائن يختارون أفلامهم، وعاد يرقب المرأة عن كثب.. رآها تسرح عبر سنوات عمرها مع ابنها، تراه ينمو.. يلعب مع أترابه في أزقة الحارات، وتنتظره حتى يكبر.. قلب الأم دائماً في انتظار.. والآن تنتظر أن تراه على شاشة التلفاز يتسلم شهادته من جلالة الملك.. حدث نفسه، إنها الفرحة الكبرى.. الشهادة لا تعتبر شيئاً إذا ما قورنت بوقفة ابنها مع جلالة الملك ومصافحته.. الصورة التذكارية مع صاحب الجلالة أغلى من كل الشهادات..

فجأة صرخت بأعلى صوتها "إنه هو، هذا ابني محمود، أنظر، إنه يصافح جلالة الملك، حلال عليك الخمسة دنانير، أعطني الشريط، إنه شاهد على حصاد سنين عمري.. ابني.. إنه يتسلم الشهادة من جلالة الملك".. وزغردت.

تفاجأ الزبائن ووقفوا يرقبون الفرحة التي ملأت وجهها.. مسحت دمعة الفرح، واستيقظت من حلمها وهي تنقل نظراتها بين الزبائن وبين صورة ابنها على التلفاز.. قال:

"مبروك عليك الشهادة وتخرّج ابنك، والشريط".

لوّحت ثانية بالخمسة دنانير وقالت "خذها، حلال عليك".

ردّها بابتسامة وقال: "الشريط هدية النجاح، دعيني أشاركك الفرحة يا أمي".

مسحت دمعة ثانية قفزت من عينيها، وتناولت الشريط من يده، وقالت وهي تنظر في وجوه الزبائن:

"الله يحميكم لشبابكم.. الله يفرّحنا فيكم.. مبروك، مبروك يا أولاد.. أنتم مثل أولادي.. وقلب الأم لا يفرح ولا يعرف طريق السعادة إلا مع فرحة أولادها".. وألقت بالورقة النقدية الحمراء على الطاولة.. وأضافت "لقد حلفت يمين أن تأخذها".. وخرجت تمسح دموع الفرح وهي تحتضن الشريط، وكأنها تحتضن ولدها وتضمه إلى صدرها لأول مرة.

****

مجلة الشريعة العدد ٣٣٦ كانون الأول ١٩٩٣م(حصاد السنين)

ذاكرة خريفية

دخل ركنه الهادئ وجلس يكتب، "المهم الراحة النفسية"، حدّث نفسه.. أشعل سيجارة وتأمل مكتبته.. مكتبته بمثابة صومعته ومحرابه ومهبط وحيه وفنه.. أكداس الكتب تزداد مع مرور الأيام، وويْل لمن يحرك كتاباً عن موضعه أو يعبث بورقة من أوراقه.

ولجت زوجته باب صومعته، قدّمت له فنجاناً من القهوة.. بدا لها متوتّراً بعض الشيء.. قال "لا أريد صوتاً أو رنين هاتف".. وأخذ يبحث على الطاولة وبين الأوراق بعصبية..

سألته "عن أي شيء تبحث؟".

أجاب بنبره حادة " قلم الحبر".

قالت وهي تراقب يديه: اسم الله عليك، إنه تحت يدك.

وقبل أن تخرج قال: لا أريد زائراً أيضاً.

- أقول أنك غير موجود.
- فأل الله ولا فألك.
- كيف! هل قلت كلاماً غلط!.
- غير موجود معناها معدوم وميت.
- إذن أقول أنك نائم.

- نائم معناها في غيبوبة، والغيبوبة تعني فقدان الوعي.
- آه، الآن فهمت لِمَ تقول دائماً إن الأمة العربية في غيبوبة.
- يا جاهلة، قولي أي عذر.

زمّت شفتيها وقالت: اليوم صرت جاهلة!.. الله يرحم أيام زمان وأنت تقول أنتِ مثقفة وواعية، تفهميها وهي طايره.

تنهد وقال: إيه كلام شباب، أيام وراحت.. مضى عليها أكثر من ربع قرن.

- ربع قرن!، يعني أنا عمري كم!.
- أرجوكِ أنهي الموضوع وقولي عنده شغل، أو خارج البيت.
- أكذب!.
- ما شاء الله، وهل هي أول كذبة أو آخر كذبة.
- يعني أنا كذابة.. بس الرجال هم اللي صادقين!.
- على أي حال، شكراً على القهوة، واخفضي صوت المذياع أو أغلقيه أفضل.. الضجة والأصوات العالية تطيّر أفكاري وتركيزي.

مطت شفتيها وهمهمت " قال أدب قال!، بلا أدب بلا وجع دماغ"، وابتسمت ابتسامة صفراء فيها نبرة من السخرية والقَرْص اللاذع، وخرجت.

تناول رزمة من الورق الأبيض.. أشعل سيجارة جديدة.. تناول قلمه وكتب جملة.. مزّق رنين الهاتف صمت المكان.. لم يرد عليه.. تناول فنجان القهوة واحتسى رشفة منه، واصل الهاتف الرنين، قطع حبل أفكاره وشوّش عالمه، كأنما شفرات حادة قطعت خيوط أفكاره.. رفع السماعة، تلاعب في قصبته الهوائية، غيّر صوته وقال "ألو"، لم يرد أحد، أغلق الخط، أضاف "الحمد لله"، وعاد لكتابته.. عاود الهاتف الرنين من جديد، تناول السماعة فوراً وقال "النمرة غلط"، وخبط الجهاز خبطة اهتزّت لها المنضدة.. نادى زوجته وقال: "لا أريد هاتفاً ولا وجع دماغ"..

وبكل بساطة سحبت سلك الهاتف من الحائط وقالت "خلاص، اغرق في أوراقك".. وخرجت.

تساءل في دخيلة نفسه.. كيف لم يخطر على باله فصل سلك الهاتف!؟.. وفي أعماقه شكرها على هذه العبقرية النسائية المفرطة!.

عاود جلوسه للكتابة، حاول استجماع أفكاره ثانية، وراح يتذكر جملة كان يحاول أن يبدأ بها سطره الأول، أزاح كومة الأوراق من أمامه، اعتدل في جلسته، شاهد بعض كتبه غير مرتّبه على الرف في مكانها الصحيح، قام وأعاد ترتيبها.. سأل نفسه " أين المفتاح!، مفتاح الكتابة كان في رأسي، كيف تبخّر، الجملة الأولى

ضاعت، إنها مفتاح الكتابة.. آه.. بدأت أنسى، الشيخوخة لها دورها في الحياة".. وقف وتأمل الكتب ثانية.. تذكر فنجان القهوة، أخذ رشفة ثانية.. " أعوذ بالله من الشيطان، بردت القهوة وتغير طعمها.. هل أنادي عليها لتصنع غيرها، لا، لا.. ربما تتهمني بفقدان الذاكرة، أنا أعرفها، إنها جاهلة، ربما تتهمني بالتخريف والشيخوخة المبكرة أيضاً".

فجأة رن جرس الباب.. تأفف.. علا صوت جارته وهي تدلف غرفة الجلوس.. قام وأغلق باب مكتبه حتى لا يسمع صوتاً.. عاد وجلس ثانية.. تناول القلم وراح ينظر إلى مكتبته ثانية.. تناهى إلى سمعه صوت زوجته تتحدث عنه.. قام وتمشى على رؤوس أصابعه وفتح الباب بهدوء.. سألت جارته عنه.. همست زوجته بأنه في المكتب، يكتب كتابات لا تفهم منها شيئاً.. قالت الجارة: هل يكتب باللغة الإنجليزية؟.

- لا، يكتب بالعربي، لكني لا أفهم معنى كلامه.. تصوري يناديني "يا ربة الجمال والكمال".. شو يعني ربة الكمال!.. لكني أحمد الله على ما أنا عليه، ولا أفهم هذا الكلام الذي يقوله من الكتب التي يقرأها.
- يبدو أنه غارق في التفكير، ولا هم له إلا القراءة والكتابة.
- إنه غريب الأطوار.. ينقّب طوال الليل والنهار بين الكتب والأوراق مثل الفئران.. وإذا لم نذكره بالطعام، يبقى طوال

اليوم بلا أكل.. يقول إن الإنسان يأكل ويشرب ليستمر في الحياة فقط.. معدته متخمة بالكتب.. وعليّ أن أذكّره بكل شيء.. يجلس أياماً طويلة في البيت، وعندما يخرج يغيب ساعة واحدة فقط.. إني أعجب كيف لا يصاب بالجنون، إنه لا يعرف من العالم غير أوراقه وكتبه..

- الله يكون بعونك ويصبّرك عليه..
- تصوّري الغبار في مكتبته كما في الشارع، والعناكب في الزوايا معششّة.. وأخشى أن يزوره أحد ويرى هذه الفوضى.. لهذا رجوت أحد معارفه يوماً أن يحتجزه فترة في بيته، نظفت المكتب حتى أصبح لائقاً بإنسان.. وعندما عاد لم يلاحظ أي تغيير، وفي اليوم التالي قال بدهشة أن مكتبته تبدو أكثر اتساعاً ونظافة.
- بذّك الحق.. زوجك محبوب من كل الناس، وزوجي يحترمه كثيراً، ودائماً يقرأ مقالاته في الجرائد والصحف.
- صحيح أنا أشكو منه، لكني لا أتخلى عنه مقابل كل كنوز الدنيا.. وأُصاب بالجنون حين يذهب في مشوار ويتأخر أكثر من عادته.

أعجبه مديح زوجته رغم ما قالته عنه للجارة.. لكنه تذمّر ثانية وصرخ عليها أن تُخفض صوتها.. ثم أغلق الباب، عاد وجلس.. شعر بدوار في رأسه، "لا شك أنها المعدة، انتفاخ".. حدّث نفسه..

حرّك يديه بعصبية.. سقط فنجان القهوة وتهشّم على أرضية المكتب.. صرخ على زوجته لتنظيف المكان، وقف واتجه نحو المرحاض.. لاحقته الأفكار هناك، تذكّر أن اليوم هو يوم الأربعاء، هذا اليوم يعتبر شؤماً في حياته.. فيه ولد وفيه تزوج، وربما يموت أيضاً يوم الأربعاء.. طالت غيبته في الحمام وهو يحدّث نفسه.. انسابت المواضيع في مخيلته، وتزاحمت في ذاكرته، تمنى لو كان يحمل القلم والأوراق.. خرج من المرحاض وأسرع نحو المكتب ثانية.. شاهد الجارة تغادر البيت.. استوقفته زوجته: "خير إن شاء الله، قرّب موعد الولادة".

لم يرد.. شعر أنها تسخر منه.. دخل المكتب، لم يجد القلم ثانية.. علا صوته منادياً "أين القلم، قبل دقائق وضعته هنا".. دلفت زوجته خلفه مسرعة، قالت:

- دائماً تخلق الأعذار.. اكتب بقلم رصاص، الغزّالة الشاطرة تغزل برجل حمار.

قلب الطاولة رأساً على عقب ولم يجد القلم.. اندلق كوب الماء الموضوع جانب الأوراق، سال الماء على أوراقه.. اختلطت الأسطر وتعرّجت بعض الجمل والكلمات، ضاعت أفكاره المنسوخة على الصفحات.. فجأة لمحت زوجته القلم بارزاً من سترته، مدّت يدها، تناولته وقالت: "الله يكون في عونك، هذا قلمك".

صمت مشدوهاً وألقى بثقل جسده على مقعده، وقال:
"أشعر بالتعب هذه الليلة.. غداً أعاود محاولة الكتابة".. وقام إلى سريره.

****

عمان ١٩٩٩/١١/٢١م

فرسان السراب

تماوجت الألوان في رأسه.. الإعلانات الضوئية ومواكب البشر في نيويورك بهرت عينيه.. تاه في غربته الجديدة، تلعثمت النظرات والخطوات، تقدم وتأخر، جمع شتات أفكاره وبدأ البحث عن والده.. دارت في ذاكرته حكايات عن العصاميين الذين مشوا حفاة، وباتوا ليال ببطون طاوية، ثم غدوا من كبار رجال الأعمال.. كثيراً ما سمع عن رجال معدمين غادروا الوطن، وعادوا بأموال لا طائل لها، ابتاعوا أراضٍ وأقاموا عليها القصور، افتتحوا مشاريع تجارية وصناعية وساهموا في عمران الوطن، وصار يُشار إليهم بالبنان..

عرج على مقهى صغير في شارع جانبي، وجلس يستجمع أفكاره، ويريح جسده المنهك.

شعر أنه غريب وسط جزيرة نائية، تائه في موجة من الغبار، دبّ خدر وإرهاق في جسده، ولم تعد مفاصله تساعده على الحركة بعد ثلاثة أيام من البحث المتواصل.. سنوات طويلة قضاها في عمان ينتظر عودة أبيه.. لم يكن لأبيه عنوان واحد، لا يذكر ملامح والده إلا من خلال الصور.. والدته تذكر والده جيداً، حدثته كثيراً عن المشاحنات والمشاجرات التي كانت تدور بينهما قبل سفره، وعن الآلام التي قاستها طيلة فترة غيابه.. كان ابنها

"سعيد" رضيعاً في عامه الثاني عندما سافر والده إلى أمريكا، ملأ عقلها بالأحلام والوعود ورحل، ومنذ ذلك اليوم لم يعد.. تصدّق عليها بفتات قليل من المال في السنوات الأولى من غربته، ثم بعث لها برسوم تذكارية وبطاقات ملونة وانقطعت أخباره.. ربع قرن مر ولم يظهر له عنوان.. قبل ثلاثة أعوام فقط، وخلال زيارة أحد معارفه إلى عمان، قال لولده سعيد أن والده غدا من رجال الأعمال، لكنه لم يره منذ مدة طويلة.

لا يدري سعيد كيف استطاعت والدته التأثير عليه، وكيف أقنعته بالسفر إلى أبيه، قالت "لا بد أنه يمتلك عمارات ويعمل في التجارة، مثل غيره ممن سافروا إلى أمريكا، ولا بد أنه أصبح شخصية معتبرة بعد هذه المدة، وأنه يملك محطة لضخ الوقود"، وأرته صورته التي بعثها والده بعد سفره بعدة سنوات وهو يقف في المحطة..

في ظلام الليل، وفي منزل والدته القديم، اختزن عقل سعيد الباطني ثروة أبيه، وراح يحلم بالقصور والسعادة، وحلم الوصول إلى أمريكا.. ولا يدري كيف وافقت السفارة الأمريكية على منحه تأشيرة سفر لمرّة واحدة.

استدان ثمن التذكرة، ووصل أمريكا وفي رأسه ألف حلم وألف فكرة.

قفزت صورة والده إلى ذاكرته من جديد، تناول الصورة من جيبه وراح يحدّق فيها من جديد.. عشيت عينيه.. منذ ثلاثة أيام وهو يطوف ويسأل عن عنوان محطة الوقود بلغته العربية، وبكلمات أجنبية ركيكة حفظها عن ظهر قلب قبل سفره بأيام معدودة.. عشرات المحطات.. محطة واحدة استوقفته، قيل له إن صاحبها أمريكي من أصل عربي، باعها قبل ثلاث سنوات ولا يُعرف له عنوان.. أقنع نفسه أن والده يحمل الجنسية الأمريكية بعد هذه المدة، ربما غيّر اسمه العربي، ربما تزوج من امرأة أمريكية أيضاً.. عرض صورة والده على عامل المحطة، قال الأخير إنه لم ير صاحب الصورة أبداً.

في المقهى وجد نفسه خائر القوى، راحلاً من الأحلام إلى بلاد التيه والهموم، يقيم في دنيا لا يعرفها، تملأ عينيه غابة من رؤى السراب، ومن القصص الحزينة والضياع.. فاجأه رجل عربي الملامح وسأله باللغة العربية "أنت عربي؟".

هبّ من مكانه واقفاً، نظر إلى الرجل ورغب في احتضانه.. شعر أنه غريق، وهذا الرجل حبل نجاته.. تعارفا.. صحبه الرجل إلى شقة صغيرة يقيم فيها مع أصدقاء له، وقدّم له خريطة بشوارع نيويورك.. وفي اليوم التالي ساعده في البحث عن أبيه، وطمأنه أنه في أمان ما دام في حماه، حتى لا يتوه في شوارع نيويورك الواسعة الصاخبة.

انقضى شهر بطوله، شعر أنه أعمى وهذا الرجل عكازه، لم يعد يملك من المال إلا الشيء اليسير، قال له صاحبه صراحة بعد أن يئس من البحث عن والده:

- كل الناس تبحث عن فائدتها، وأنا كنت أبحث عن فائدتي حتى أجد والدك الغني كما تقول.. بحثت معك وكلي أمل أني سأجد عنده وظيفة أو عمل يدر عليّ دخل إضافي، لكن لا أمل بوجود أبيك.

لم يصدّق سعيد ما سمع، وتساءل في سريرته " ألهذه الدرجة تعمي المادة العيون!؟، هل المادة كل شيء؟"، وسأل صاحبه:

- هل هذه أخلاق أمريكا؟".

انفرجت أخاديد الرجل عن ابتسامة صفراء وقال ساخراً:

- في أمريكا يعيش المرء على هواه، أحلام وحرية، خلية نحل، الفاشلون في أمريكا هم العاجزون والمجرمون ومدمنو المخدرات.. أمريكا غابة من الحيتان، القوي فيها يأكل الضعيف بلا رحمة ولا شفقة، هنا عمل ورأس مال، المادة كل شيء، ومن لا يعمل بجد يضيع، إنس أمر أبيك والبحث عن ثروته، وابحث عن عمل حتى تستطيع تدبر أمرك.

شعر سعيد أن صاحبه خنقه بكلماته.. ثار ونفى عن نفسه التهمة، وقال إنه لم يفكّر يوماً في ثروة أبيه.

ذات مساء، قال له صاحبه الذي كان يعمل سائقاً على سيارة أجرة "أظن أني وجدت الخيط الذي يوصلك إلى والدك".

قفز سعيد من مكانه ولم يصدق ما سمع.. أكد صاحبه الخبر وأضاف "أخبرني أحد معارفه أنه قضى فترة طويلة في السجن، وإذا كنت ترغب في رؤيته، أنا مستعد أن آخذك إليه".

دار به في السيارة ثلاث ساعات متواصلة، ثم توقف عند محطة لضخ الوقود في ضواحي ولاية نيويورك، وسأل أحد عمال المحطة بلغة أجنبية:

- أين العربي الذي يقيم هنا؟.

تأمل العامل الرجلين وقال:

- هل أنتما من مصلحة الضرائب؟.

أجاب صاحبه: "لا، بل نحن قريبان له".

هز رأسه، وأشار لهما إلى مكان قريب.

في غرفة جانبية تفوح منها رائحة المشروبات الكحولية، كان هناك رجل عجوز محني الظهر، يرتدي بنطالاً من الجينز وحذاء

من الجلد السميك، يغوص في الوحل، وينظف غرفة العمال في محطة غسيل السيارات.. حيّاه بالعربية "السلام عليكم".

رفع العجوز قامته، وقال بصوت تتخلله كحات خفيفة "وعليكم السلام".

- هل تعرف مسعود الصادق؟. قال سعيد.

نظر إليه العجوز بعينين منهكتين وقال: آه أعرفه.

- أنا ابنه، أنا ابن مسعود الصادق، وهذا صديقي، هل تدلّني على مكان إقامته؟.

نظر العجوز إليه بشوق وقال "ابني سعيد"، وتقدم ليحتضنه.. تعثرت قدماه، ترنّح وكاد يسقط، تلقفه ابنه سعيد بين أحضانه، تعانقا، وكانت أول جملة طرحها على مسامع ابنه "أنا مستعد للعودة إلى الوطن حتى لو كنت محمولاً في تابوت".

عمان ٢٠٠٤/١٢/٥م

ضيف المساء

جاءه الحاج أبو حسن مريضاً عاجزاً، يتوكأ على عصا، وطلب منه بصفته مختار العشيرة شهادة تثبت أنه فقير الحال، ليقدمها إلى الجهات المسئولة، ويتم علاجه على حساب الديوان الملكي.

سأله المختار ناجي عن حاله بعد هذه الغيبة الطويلة.. بدت على وجه الحاج علامات حزينة، تأوه وقال: "راحت الأيام الحلوة وأخذت معها المال والصحة، وبقيت وحيداً بعد وفاة الحاجة أم حسن".

سأله: وكيف حال الأولاد؟.

قال: بخير، لكن أحوالهم المادية تسوء يوماً بعد آخر بسبب هذا الغلاء.

ما أن غادر الحاج أبو حسن البيت حتى راحت الذكريات تطارد أفكار المختار، وهو يرى أبا حسن في عنفوان شبابه.. كان ناجي في الثانية عشرة من عمره، وكان أبو حسن يملك بقالة في الحي الذي يقيم فيه، ويتحكّم في رقاب الفقراء، عندما وقعت له هذه الحادثة معه.. ففي مساء أحد الأيام من عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين، طلب منه والده أن يذهب إلى بقالة قريبه "أبو حسن" ويستدين خبزاً وعلبة سردين وتمراً كي يتعشى ضيفهم

الذي حل في بيتهم تلك الليلة، كان والده مريضاً وحالته المادية معدمة، وكان ناجي يعرف أن أبا حسن لن يعطيه شيئاً.. لهذا لجأ إلى حيلة تعلمها من الضيف، أخذ يراوغ في كلامه، ويدور حول الموضوع كما فعل الضيف معه مساء تلك الليلة.. كانت الشمس تقترب من المغيب، عندما لمح رجلاً طاعناً في السن يقترب من بيتهم الطيني المقام على سفح جبل، يطل على شارع القدس، ويغني بصوت خافت حزين مواويل فلسطينية، ما لبث بعدها أن حط رحاله تحت ظلال بوابة المنزل، وجلس كي ينال قسطاً من الراحة بعدما نال التعب منه وحرارة الشمس.

اجتاز ناجي الباب ودنا منه عله يعيد على مسمعه تلك المواويل الشجية التي سحرته، لكن سرعان ما خاب ظنه عندما وقف بين يديه، وطلب منه أن يعيدها ثانية، فأجابه العجوز:

"يا صغيري، هل تستطيع أن تأتي بكوب من الماء لرجل طاعن في السن لم يبق منه سوى جسد أثقلته السنون، وخلّف قلباً يخفق في بلاد حُرم من الإقامة فيها؟".

سأله ناجي: ولماذا حُرمت من الإقامة في تلك البلاد؟.

أجاب الرجل وقد بدا الحزن واضحاً على ملامح وجهه: لقد طردنا اليهود منها بعد أن ذبحوا معظم سكانها.. وكرر طلبه ثانية: أعطني كوباً من الماء يا صغيري.

تجاهل ناجي طلبه وسأله: وأين زوجتك وأولادك؟.

أجاب بمرارة: وسعتهم رحمة الله بعد مذبحة دير ياسين.

- ولماذا تركت تلك البلاد؟.
- إنها الهجرة يا صغيري، ألم يخبرك والدك عن نكبة فلسطين وهجرة الشعب الفلسطيني؟، واضح أنك طالب نجيب وذكي في مدرستك، ألم يشرح لك الأساتذة عن قضية اغتصاب فلسطين، وعما لاقاه شعبها من قتل وتشريد؟.. أين كوب الماء يا صغيري؟ أكاد أموت من العطش.

فجأة أطل والد ناجي من الباب وصرخ بأعلى صوته:

- لماذا لا تعط الرجل طلبه يا ولد؟ اذهب وأحضر له الماء كما طلب.

رفع الشيخ ناظريه إلى والد ناجي وقال:

- كان ولدك يحدثني عن دروسه وعن تفوقه بين زملائه في المدرسة.. بارك الله لك فيه وفي أمثاله.

تساءل ناجي في قرارة نفسه " يا إلهي، كيف التمس لي هذا العذر، وهو لم يتطرق معي لهذا الموضوع، من أين جاءته هذه

الفكرة!".. بينما راح والده يبادل الرجل المسن التحية ويدعوه للدخول:

- تفضل يا رجل، البيت بيتك، ومن العار أن تجلس على عتبة البيت دون أن تدخله.

رد عليه الرجل بخجل: أريد فقط كوباً من الماء، فقد قتلني العطش.

ألحّ الوالد عليه بالدخول، فهمس الرجل وكأنه يحدث نفسه: ماذا تتوقع من مجاهد فلسطيني عجوز نكّد الجوع والعطش حياته، أيرفض تلك الدعوة؟.

قال له ناجي بعد أن استراح في المجلس وأروى ظمأه:

- هل لي أن أطلب منك أن تعيد على مسمعي تلك المواويل؟.

تنهد وقال: عندما تكبر يا صغيري ستدرك أن غناء المواويل لا يسمن ولا يغني من جوع، إن ما يغني الإنسان هو العلم والعمل كي يحظى بلقمة عيشه.

نظر الوالد إلى ولده ناجي وقال هامساً:

- اذهب إلى بقالة قريبنا "أبو حسن" وأحضر خبزاً وعلبة سردين وتمراً كي يتعشى ضيفنا.

رد ناجي بصوت خافت: إنه يرفض أن يقرضنا، لقد أبدى تذمره بالأمس عندما مررتُ من أمام بقالته، قال إننا لم نسدد ما علينا من ديون، ولا نملك قمحاً أو عدساً نبيعه لنسدد الحساب، والمبلغ تجاوز الأربعة دنانير.

همس والده ثانية: اذهب إليه، وحاول جاهداً أن يعطيك ما تطلبه، وسأوفيه حقه عاجلاً أم آجلاً، هذا يكفي، ولا تفضح أمرنا أمام الضيف.

- إن قريبنا إنسان لا يمكن التفاهم معه، ولا يعرف من هذه الدنيا سوى جمع المال.
- اذهب إليه وأخبره أن هذا طلب والدي الأخير.

كان الرجل المسن صامتاً طيلة الوقت منصتاً، وما لبث أن تدخّل وقاطع الوالد:

- لا أريد شيئاً، يكفي أن تأويني هذه الليلة، وفي الصباح أتابع طريقي.

تجاهل والد ناجي ما سمع من ضيفه وقال لولده:

- هيا يا ولدي، فأنا أعرف أنك لن تعود فارغاً، وأن قريبنا سيقدر ظروفنا.
- إنني لا أعرف يا والدي ماذا أفعل، فقريبنا أبو حسن يعتقد أننا نحتال عليه بالوعود الكاذبة والكلام المعسول، لنخفي

عنه عجزنا عن تسديد ديوننا له، وقد سألني مساء البارحة إذا كنا نملك شيئاً نبيعه ونسدد ديوننا.

استشاط والد ناجي غيظاً وصاح بولده بصوت عالٍ:

- اذهب إليه وقل له بكل اعتزاز أن والدي سينزل إلى السوق غداً ويبحث عن عمل ليسدد ما عليه من ديون، على الرغم من مرضه الذي أقعده في البيت، وجعله يعوز ويستدين من أمثاله.
- سأذهب إليه وأبذل قصارى جهدي، مع أني على يقين أنه لن يهتم بكل ما أقول.

غادر ناجي المنزل قاصداً بقالة قريبهم، وفي الطريق راح ينقل بصره هنا وهناك عسى أن يواتيه الحظ ويحظى بقطعة نقود سقطت سهواً من صاحبها، لكن خاب فأله، وسرعان ما وجد نفسه أمام مخزن قريبهم فدخله، اعترت أبو حسن الدهشة، وأخذ يفرك عينيه اللتين أوشكتا على الخروج من محجريهما، بادره ناجي قائلاً:

- ما رأيك يا عم لو كنت الآن في بلد غير بلدك وحيداً، لا صديق يؤنس وحشتك ولا قريب يمدك بالعون، واحتجت للمال، ألا تعتقد أن هناك أناساً ذوي قلوب طيبة لا تخلو من

العطف.. لو طلبت منهم قليلاً من التمر أو الخبز لتخفف عنك وطأة الجوع لأعطوك ما طلبت..

تجاهل أبو حسن سؤاله، وبادره بسؤال بلهجة صارمة:

- ماذا تخفي وراء كلماتك المعسولة!؟.
- أرغب في الحديث معك فقط، لنعد إلى حديثنا، لا شك أنك ستلتقي بمن يمد لك يد العون في تلك البلاد البعيدة.
- أخبرني باختصار، ماذا تريد، وكم تحمل من نقود؟.
- أسأت فهمي يا عم، أنا لا أريد شيئا، أود فقط أن أخبرك عما يجول في خاطري، لو انقطع أحدنا في بلاد غريبة، ألا ترى أنه بحاجة ماسة لذوي القلوب الرحيمة؟.
- أنا لا أفهم ما تقصد إليه.
- لكنه مجرد سؤال، خاصة وأنك أكثر خبرة مني في هذه الحياة، وأريد أن تعبّر لي عن شعورك في هذا الموقف.
- لا أعلم، ثم لماذا تريد أن أغادر بلدي وأقف هذا الموقف؟، هل أذهب لأنتظر من يتصدق عليّ ببعض التمر أو الخبز؟.
- لنفرض فرضاً لا أكثر من ذلك يا عم أنك قمت برحلة إلى بلاد بعيدة، وفرغت جيوبك من المال، وحل بك الجوع، وأشرفت على الهلاك بعيداً عن أحبائك وأولادك، ألا تعتقد أنك ستجد في تلك البلاد أناساً طيبي القلوب، لن يتوانوا

بالقليل من التمر لرجل معوز مثلك، ألا تشاطرني الرأي في ذلك؟.

- طبعاً، أشاطرك هذا الرأي، لكني أحمد الله أنني هنا بين أقاربي، ولست في بلاد بعيدة لا أعرف فيها أحداً، ومع ذلك لن أقدم لك أية مساعدة، ولن أقرض والدك شيئاً، لأنه لم يسدد ما عليه من ديون سابقة.
- أسأت فهمي يا عم ثانية، أنا لا أطلب منك أن تساعدنا بشيء، كنت أقصد أنك ستجد بين البشر من يقوم بواجب إنساني إذا شاهد غيره يعاني من الجوع والحرمان.
- على كل حال، نحن لسنا في الغربة، وقل لوالدك أن يكدح من أجل لقمة عيشه، لقد أحب الجلوس في البيت بعد أن مرض، خسر البيدر، وخسر العمل بالأجرة، وتكاثرت عليه الديون.

قطع ناجي حديثه مستفسراً:

- لو احتجت يوماً لرغيف وعلبة سردين لتسد بها جوعك، وكنت لا تملك من المال لتسديد ثمن ذلك الطعام، هل تتردد بطلب العون من أصحاب الجود والكرم؟.
- نعم أتردد في طلب العون، إن نفسي أكبر من أن أستجدي الناس حتى لو كنت مريضاً أو كانت ساقي مكسورة.
- حتى لو اعتزمت أن تدفع لهم أضعاف ما دفعوه لك.

- حتى لو اعتزمت ذلك!.

لم يجد ناجي فائدة من الحديث مع قريبه أبـي حسن، ومـع ذلك حاول أن يثنيه عن رأيه، فقال له:

- أنت تعلم أن هذا الكلام مرفوض قطعياً، فإذا عفت نفسك عن طلب العون من أهل الكرم، فإنك ستموت حتماً وحيداً فـي تلك البلاد، دون أن تُذرف عليك دمعـة واحدة، أظنك الآن تشاركني الرأي يا عمي.

أجاب أبو حسن والغضب باد على قسمات وجهه:

- لن أستجدي، ولن أبالي حتى لو قدر لي الموت، ولـن تأخذ مطلبك دون أن تدفع ثمنه، قل هذا لوالدك.

شعر ناجي أن لا فائدة تُرجى من قريبه، فغيّر مجرى الحديث وسأله عن صحته:

- لقد نسيت أن أسألك عن صحتك، كيف حالك هذه الأيام؟.
- بصحة جيدة والحمد لله.
- وكيف حال الأولاد؟.
- في تمام الصحة والعافية.
- صـدقني يـا عم إنـي لا أسـتطيع أن أعبـر لـك عـن خـالص مشـاعري وسـروري لكـون أفـراد عائلتـك بـأتم الصـحة والعافية.

انفرجت أسارير وجه أبي حسن، وما لبث أن سأل ناجي عن مراده، وكم يحمل من النقود؟.

- يا عم، أنت تعلم جيداً أني لم أقصدك لأبتاع منك، أما ما يتعلق بوجودي هنا، فأنت تدرك أني أستعذب حديثك، خاصة المواضيع الفلسفية التي يهمني رأيك بها.

وهنا قام أبو حسن وناول ناجي رغيفاً واحداً وقال له:

- لكن عليك أن تدفع الثمن نقداً، فوالدك أسوأ ما لدي من الزبائن.

قاطعه ناجي ثانية بخبر لعله يثير اهتمامه:

- حل أحد المجاهدين هذا المساء ضيفاً عند والدي بعد أن انقطعت به كل السبل، وقال أنه يعرفك حق المعرفة.
- ما اسم هذا المجاهد؟.
- لا أعرف، لكني أعتقد أنه عبد القادر الحسيني، وهو يرغب برؤيتك أيضاً بعد العشاء، لكن والدي لم يجد ما يقدمه له، فطلب مني أن آتيه بخبز وتمر وعلبة سردين.

لكن أبا حسن رفض أن يلبي طلبه مبرراً قوله:

- لقد زادت عليكم الديون، ولم يسدد والدك قرشاً واحداً.
- أنا ذاهب، لكني لا أدري كيف تبرر موقفك أمام المجاهد الكبير؟

وقبل أن يخرج استوقفه أبو حسن وقال له:

- حسناً، سأعطيك ما تطلبه، لكن تأكد أني لن أعطيك شيئاً في المرة القادمة مما تطلبه.

غادر ناجي المخزن، وقد اعترته غبطة من السرور ونشوة الانتصار عما غنمه برجاحة العقل وحسن التصرف الذي تعلمه من ضيف ذلك المساء، وبينما كان مسرعاً نحو المنزل حاملاً غنيمته، لمح قريبه "أبو حسن" يركض خلفه ويصرخ:

- أيها الكذاب، لقد تذكرت أن عبد القادر استشهد عام النكبة في القسطل، ولا أدري كيف انطلت عليّ حيلتك أيها الخبيث.

أسرع ناجي يحث الخطى نحو البيت وأبو حسن يلاحقه، وتبعه جمع من الجيران على صراخه، ووقف الجميع قرب باب المنزل.. فجأة أطل الضيف وأخذ يغني مواويل أشد حزناً من السابق عن الهجرة والمذابح والكرم والجود، ووقف الجميع ينصتون لصوته بخشوع لمدة ليست بالقصيرة، وفجأة توقف عن الغناء، فقال أحدهم:

- لماذا لا تتابع الغناء!؟.

قال الضيف: هل تحمل نقوداً؟.

أجاب الرجل: لا.

- ألا يوجد في بيتكم خبز وبيض.
- بلى، يوجد الكثير منه.
- إذن اذهب وآت بالقليل منه حتى أتابع الغناء.

أسرع الرجل اتجاه بيته، وتراكض الآخرون خلفه، وبعد دقائق عادوا يحملون ما طاب من الطعام وبعض النقود، وراح الضيف يغني ما طاب لهم من المواويل الفلسطينية، بينما أخذت والدة ناجي تعد الطعام.

ومع أن السنوات مرت، والأيام تغيّرت، كما تغيرت النفوس والمقامات، إلا أن ناجي لم ينس تلك الليلة التي طعموا فيها أطيب الطعام، وسدد والده من خلال ما أحضره الجيران ديونه.

****

بيروت ٢٠٠٦/٩/٢١م

الجرح والمنفى

بعد أكثر من ثلاثين عاماً من غيابه، حطت به الطائرة في مطار عمان، كان يمنّي النفس برؤية الأقارب، ويحلم بالاستقرار وسط الأهل.. جمع مبلغاً كبيراً من المال أثناء غربته، وبعثه إلى أخيه ليشتري له أرضاً، ويبني عليها بيتاً يستقر فيه بعد سنوات الغربة الطويلة.. قال له أخوه أنه بنى له قصراً في عمان.. حمل أحلامه في حقائبه وعاد ليؤثث القصر قبل أن يلتحق به أفراد أسرته، لكنه فوجئ بأن الأرض مسجلة باسم أخيه، ولا أثر للبيت الذي حلم به طيلة فترة غيابه.

شعر بخيبة أمل، ويئس من إقناع أخيه بالتنازل عن سند ملكية الأرض.. أظلمت الدنيا في عينيه، ولم يجد في جعبته ما يثبت حقه عند أخيه.. فقد أحلامه وثقته بأخيه، وجافاه النوم لثلاثة أيام.. وفي اليوم الرابع، ثار وخرج من بيت أخيه.. حمل أذيال خيبته، واستقر في فندق وسط العاصمة.

شعر أنه ضائع، مقيد بألف سلسلة.. راح يطوف في شوارع عمان على غير هدى.. تذكّر مهد طفولته.. بدت حارته القديمة في حي المهاجرين كعالم مفقود، راح يتأمل جزءاً مضى من حياته ولن يعود.. شدته الأماكن بجاذبية وقوة خفية لم يستطيع الفكاك منها.. قادته قدماه إلى مسارب تؤدي إلى حديقة رأس

العين التي كان يراها دنيا كاملة، عالم، ذكريات الطفولة والشباب قلّما تُنسى.. تغيّر كل شيء، ولم يبق شيء على حاله.. *سيل عمان /ختفى*، تأمل المكان جيداً، المسارب صارت شوارع عريضة، سقف السيل تحول إلى صرح ثقافي، انبثقت أمانة عمان كمعلم حضاري وسط الساحة الكبيرة، الحديقة صارت حدائق علم وثقافة وحدائق ورد ونخيل.

جيله تخرّج من الحياة ومضى في حال سبيله، لم يبق غير الذكريات، الذكريات تجر بعضها بعضاً، لم يعرف أحداً.. عرج على الحلاق.. حدث نفسه، الحلاق هو الوحيد الذي عنده أخبار حارته القديمة، أخبار الأموات والأحياء.. قاموسه دائماً في تضخم وصفحاته في ازدياد.. لم يجده.. ابنه هو الذي ورث موس الحلاقة وقطعة الصابون ومرآة ومقص وخيط الحرير.. تغير الصالون وتغيّر ديكوره.. سأله عن أسماء.. لم يعرف منهم أحداً.. قال:

"أعرف أبناءهم أو أحفادهم، رحل من تسأل عنهم، شاخوا وتفرقوا في بلاد الله الواسعة، مات من مات، ورحل من رحل".

انكفأ على وجهه وراح يتجول ثانية ويتأمل العمران.. العمارات الجديدة قامت وسط حي المهاجرين وحاصرته من كل الجهات.. هدوء المسارب والدروب والشوارع الضيقة ولّى منذ

زمن بعيد.. كل الشوارع صاخبة ومزدحمة، تاهت نظراته.. تأوه.. إنه يحب حياة التأمل ولحظات الصمت الهادئ، ولو خيّروه لاختار أن يعيش نصف عمره في هدوء وتأمل، على أن يعيش عمراً كاملاً في ضجيج وهرج.. لقد عاد من بلاد الزحام ليظفر بلحظة هدوء، لكنه لم يظفر على بغيته، ولم يحقق أمنيته.. أحس بالضياع من جديد.. تأمل وجوه المارة وشحنته الذكريات.. حدث نفسه، كل وجه يخفي أكثر من حكاية، تاهت الوجوه في صخب الحياة، وعبست.

شدّ قامته حتى لا يبدو أحدباً، وسار بخطوات ثابتة يتأمل مدرسته القديمة، لم يتعرّف عليها، مدرسة العباسية الابتدائية غاصت بين البيوت الجديدة.. تمشى باتجاه وسط العاصمة وأخذ يدندن بأغنية قديمة من أغاني سيد درويش "سالمة يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة".. قال في سريرته، أية سلامة هذه!، وهمس في أعماقه "جينا ورحنا بالندامة".. أسراب من المشاة تموج أمام ناظريه، عمال وأصحاب شعور مسترسلة وهواتف خلوية.. أمشاج من البشر ينوء الشارع بحملهم.. انفضّ جراب الذكريات في رأسه ونفض عنه غبار الزمن.. ما زال يذكر سوق اليمانية وسوق البخارية ومحلات بيع الكتب التي تحيط بالجامع الحسيني كسوار مزركش.. نسي ما حدث له وأحس بشبابه يعود إليه، حدث نفسه "عمان ما زالت عروس العواصم العربية"، ذكرياتها

عطر يداهم لحظات فكره ويطارد أحلامه.. صور قديمة ما زالت في ذاكرته، عادت الصور وتجسّدت في عينيه من جديد.. اختفت المعالم الجديدة ورأى بأم عينيه ما تزخر به ذاكرته.. كشك بائع الكتب ما زال قائماً جانب البنك العربي، بائع الفول السوداني ما زال في مكانه قرب سوق الصاغة، والدخان الخفيف يتصاعد من مدخنة عربته الصغيرة، وجهه الأسمر امتلأ بالتجاعيد، لكنه بدّل أحزانه بابتسامة صافية، حافظ على وقفته، كبر وغدا جداً، ولا زال يلف القراطيس بشكل مخروطي ويحتفظ بمكانه، حدث نفسه ثانية، " كم هو رائع الاعتزاز والالتصاق بالمكان"، تأمّله ومدّ له نصف دينار، بدت رعشة خفيفة في أصابعه وهو يلف له القرطاس ويملأه بالفستق، لكن ابتسامته وشوق الترحيب بقيت على حرارتها.. انطلق وفي يده القرطاس.. ما زال يذكر كل شيء.. يذكر سينما فلسطين، ويتذكر كيف زاغ ذات يوم عن المدرسة ليحضر فيها فلمي عنترة بن شداد وفلم فتاة الطبيعة والعبيد.. دار بنظراته وراح يتأمل الأمكنة من جديد.. وقع نظره على امرأة تلف جسدها بعباءة سوداء، تجلس على رصيف جانبي، وتبيع علب الدخان والعلكة والبخور، تأمّل بسطتها الصغيرة المفروشة على الأرض، وابتسم لطفلها الصغير الذي جلس قربها يرقب المشاة، وفي تجاوب ملائكي ابتسم له الطفل ببراءة، وسلّط عينيه على القرطاس.. مدّ يده وناوله القرطاس بما

فيه، وانغرست ابتسامة على شفتيه أكبر حين مدّ الطفل يده وتناوله.. شعر أن هذه البسمة تساوي الدنيا وما فيها، ابتسم له من جديد، تذكر أنجاله وأحفاده، انسابت دموعه، وشعر بغربته الحقيقية في وطنه.. لم ينم تلك الليلة، ومع خيوط الفجر توجه إلى المطار، وقبل أن تقلع الطائرة، نظر من النافذة، وترك لدموعه العنان وهو يودع كل ما تقع عليه عيناه، قبل أن يستقر في منفاه القسري من جديد.

****

عمان ١٩٨٩/٨/١٤م

الحقد الأعمى

في جنين وخلال فترة منع التجول، كمن جنود الاحتلال على سطح إحدى البنايات يرقبون الشوارع ويتصيّدون المشاة.

في البناية المقابلة، جلس رجل عجوز قرب نافذة بيته وأخذ يُسبّح.. راقبه أحد الجنود جيداً.. صوّب منظار بندقيته على وجهه، جال من خلال عدسته المكبّرة أرجاء بيته، لم يرَ أحداً غيره.. صوّب نظره على زقاق ضيّق وأطلق النار.. سقط طفل يطارد كرة صوفية أمام بيته ولم يصرخ، تمرّغ الطفل في دمه ولم يجد من يسعفه.. عاد الجندي وراقب العجوز من جديد.. حدّق به جيداً.. شعر أن نظرات العجوز هلوعة نهمة، توارى خلف بندقيته وتحاشي نظراته.. شعر بنظراته تلاحقه.. خُيل له أن العجوز يلتهمه بعينيه.. عاد وتوارى خلف بندقيته واستعد لجندلة العجوز.. لم يعد يراقب المارة، صار همّه الوحيد مراقبة العجوز.. لاحظ أن أذنيه مستطيلتين بشكل ما.. قال في نفسه "الأذن الطويلة تدل على رهافة السمع، ربما أمه شدته من أذنه عندما كان صغيراً.. تلك المداعبات البدائية الخشنة تحدث عاهة في جسم الطفل.. مالي ومال أذنه.. لعنة الله عليه وعلى أذنيه.. إنه ما زال يراقبني"..

راقبه جيداً من جديد.. مال العجوز برأسه قليلاً.. همس الجندي في قرارة نفسه "إنه يتنصّت.. إنه يحرك أصابعه أيضاً، ويعدّ عليها.. ربما كان يعّد الجنود.. إنه يتكلم.. لا يمكن أن يتحدّث مع نفسه.. ربما ينقل ما يراه من خلال جهاز هاتف نقال أو لاقط خبّأه في مكان ما من جسمه.. منذ ساعات وهو مازال مسمّراً على مقعده.. لم يأكل ولم يشرب ولم يقم إلى المرحاض".

شعر أن نظرات العجوز تحاصره..

لكزه صديقه "مالك مشغول بهذا العجوز؟".

قال "انظر إليه، إنه ما زال محنّطاً على مقعده منذ ساعات.. يحاول أن يفترسني بنظراته".

- دعك منه، فأنا أراه منذ مساء البارحة، تجاهله، أبعده عن دائرة انتباهك وركّز على المارة وعلى كل من يتحرّك.. أبعد عنك وجع الدماغ.

دار الجندي في حلقة من الفراغ.. تجاهل كلمات صديقه، وظل طيلة وقته مشغولاً بالعجوز.. سادت العتمة المكان.. راقبه من خلال منظار بندقيته ذات الأشعة الحمراء.. ما زال مسمّراً في مقعده.. صوّب بندقيته بين عيني العجوز، وأطلق النار.. لم ترتعش أصابعه.. مال رأس العجوز إلى الخلف وسقط على

الأرض جثة هامدة بلا حراك.. قفز صاحبه وصرخ في وجهه: "ماذا فعلت!؟، ألم أقل لك تجاهله.. إن هذا العجوز لا يبصر".

****

بيروت – شتاء ٢٠٠٥م

القدّيس

تجمّع أبناء عائلة الشيخ غانم، واندفعوا بقوة نحو أرضهم، تصدى لهم الجنود، أوقفوهم قرب الأسلاك الشائكة، لم يتراجعوا، حفروا قبوراً جماعية لموتاهم وشهدائهم سلفاً، وراحوا يرقبون المستوطنين بغضب وقهر، وهم يقيمون صلواتهم وشعائرهم الدينية، حول القبر المغروس قرب جذع شجرة الزيتون الفلسطينية القديمة..

صرخ حمدان "هذا جنون، هذا قبر أبي".. لم يستمعوا له.. وطغى صوت أحد كهنتهم على صوته قائلاً أن حلمه تحقق بعد أن عثر على قبر نبي اليهود الصالح "رعنان" المدفون في هذه البقعة المقدسة، والذي ورد ذكره في التوراة.. وراح يعد الحجارة الصغيرة التي تحيط بالقبر الذي درس منذ زمن.. تعالت أصواتهم وصرخاتهم، واتخذوا قراراً بمنع العمال العرب من القدوم إلى تلك البقعة أو فلاحتها، تمهيداً لبناء كنيس فوقها..

ارتجف حمدان واستشاط غضباً، تخطى الجنود وقفز عن الأسلاك الشائكة وشق طريقه نحو المستوطنين، قبض بيده على حجر صغير من حجارة القبر، وصرخ ثانية "هذا قبر أبي، وليس قبر نبيكم الذي تزعمون".. نظروا إليه بدهشة، انهالوا عليه ضرباً، أهلكوه عصياً وطردوه خارج أسوار المستوطنة.. لطّخت

الدماء وجهه وجبينه، وراح يجر قدميه خارج أرضه، ويتذكر كلمات والده الشيخ غانم قبل غيبوبته الأخيرة:

"المغتصب يا أبنائي كالنيران التي تحرق كل شيء، نيران المغتصب حرقت قلبي قبل أرضي، نيرانهم أتت على الأخضر واليابس، حرقت كل شيء حي فوق التربة، لكنها لم تستطع الوصول إلى جوف الأرض، ولم تحرق الجذور، الجذور ما زالت حية".

صمت لحظة، انسابت دمعته، ترقرقت على وجنته وسالت على لحيته البيضاء، نظر بعينيه المرهقتين من باب بيته المفتوح صوب بيته وأرضه وأضاف "هذه الجذور هي جذوركم يا أبنائي، تذكروا دائماً أنها جذور مرتبطة بشرف الأرض وحب الوطن، وأصالة هذه الأمة".

شعر حمدان بالنيران تحرق جوفه وأحشاءه، تراكضت الصور في مخيلته، اشتعلت ذاكرته من جديد، صور حزينة، مذابح، منافي، غربة داخل الوطن.. أحس أن هذه الأرض المعطاء التي صادرها جنود الاحتلال ونفوه مع عائلته منها، تطفح غضباً على ملامح وجهه.

كثيرة هي القرى في شمال فلسطين التي ترزح تحت نير الاحتلال، تنضح بمثل هذه الحكايا، "حدث نفسه"، جميع القرى

مفروشة بحكايات الوجع والقهر والغربة داخل الوطن.. أهالي القرى والمدن يعرفون متى بدأت حكايات قهرهم، لكنهم يجهلون متى يسجل تاريخهم قهر العدوان، ومتى تكون عودتهم.

أغمض عينيه وراح يحلم، تجمعت في عينيه كل ألوان قوس قزح في ثوب حداد فلسطيني، ذاكرته تخضّبت بالدماء، وانبثقت من مشاريع الأحلام التي لا تُنسى.. شعر بأنفاسه تغبّ وتعبق أريج زهر البرتقال والليمون واللوز في بيارته، وفي كروم العنب التي يراها بصعوبة على مدّ نظره، "جنات على مدّ النظر".

انطلقت من بين أسنانه صرخة ألم، عضّ على نواجذه وتذكر والده ثانية وهو يكابد حشرجات الموت في لحظاته الأخيرة، ويضيف بصوت متهدّج:

"اغرسوا الجذور ثانية يا أبنائي، حافظوا عليها وارووها حتى لا تصلها النيران ثانية، الجذور تعرف كيف تنمو، كيف تلاحق النور وتعود خضراء من جديد".

وحده حمدان بن الشيخ غانم استوعب كلمات أبيه، وأقسم أن ينفذ وصيته بحذافيرها، ويدفن والده في أرضه التي صادرها المحتل منذ عشرات الأعوام، وأقاموا عليها مستوطنة.. وكمنْ يغمض على حبة رمل، أغمض عينيه بألم، وراحت راحة والده الشيخ غانم تتراءى له وهو يشير لأبنائه نحو الأبواب الموصدة

والأسلاك الشائكة التي تفصله عن أرضه، بعد أن حرقوا محصولها، ودفعوه بعيداً إلى قرية مجاورة ليفلح أرضاً لا يملكها.. وعلى مدى سنوات طويلة ظل يحدّق بعيون غاضبة صوب أرضه، وصوب بيته الواقف بصمت القبور على مرمى حجر.

في هزيع الليل، وخلال هجوع المستوطنين، تجمّع أبناء الشيخ غانم وأقرباؤه على عجل، حملوا جثمان الشيخ غانم وتسللوا إلى قريتهم، دخلوا أرض الآباء والأجداد والأنبياء في ظلمة ليلهم، أرض اللبن والعسل.. انهالت الفؤوس في الأرض الرطبة قرب جذع شجرة زيتون قديمة، حفروا قبراً على عجل وغرسوا فيه جثمان الشيخ غانم، أهالوا عليه التراب وساووه بالأرض.. وكخيوط الفجر انسل الجثمان من عيونهم واحتضنته أرض الوطن.. كانت الأرض دافئة رغم برودة الليل ونعومة نسيمه البارد، وراحت الغيوم تتلاحق مع الفجر وتتساقط حبات صغيرة من المطر على الأرض المشبّعة بالأنين.. ومع خيوط الفجر تسللوا ثانية وعادوا أدراجهم يتوارون عن أعين المستوطنين.. وحده قبر والدهم الشيخ غانم بقي شاهداً على ملكيتهم لهذه الأرض المعطاء.

لم ينس حامد تلك الليلة، كما لم ينس وصية والده.. فمنذ أن غرس والده كجذر في أرضه، أخذ يعتني بالجذور التي توالدت

ونمت وراحت تلاحق النور لتعود خضراء من جديد.. فجأة دفعه أحد الجنود وقطع حبل أفكاره.. صرخ من جديد "هذا جنون، هذا قبر أبي وهذه أرضي".. وألقى بالحجر الذي في قبضة يده نحو الجنود.. انهالوا عليه ضرباً بعصيهم وكعاب بنادقهم، طاردوا المحتشدين برصاصهم الحي والمطاطي.. تصدت لهم الجماهير المحتشدة قرب الأسلاك الشائكة، لم يتراجعوا، حفروا قبوراً جماعية لموتاهم وشهدائهم، ووقفوا مع أبناء الشيخ غانم وقفة رجل واحد، يصرخون بأن الأرض أرضهم والوطن وطنهم، وأن والدهم كان قديساً وشيخاً غانماً، لكنه لم يكن في يوم من الأيام نبياً من أنبياء اليهود.

****

بيروت ١٩٩٥/١٠/٥م

حدود الغضب

لفحه البرد والصقيع، فشعريرة غزت جسده، ارتعش، شعر أنه ما زال على قيد الحياة، الطلقات تلاحقه، والجنود يلاحقون أثر الدماء التي تنزف من ساقه، زحف على بطنه، لم يتوقف، نظر بعينيه المرهقتين إلى موقعه، شعر بالضياع، تذكّر المهمة التي جاء من أجلها، احتضن بندقيته وتكوّر عند جذع شجرة خارج حدود المخيم، أخذ المطر يتساقط بغزارة، أحس به يغمر جسده، كما أحسّ بدبيب الدماء النازفة من ساقه، " لم يمت بعد".. حدث نفسه، أرهف السمع، لم يسمع وقع أحذيتهم، خفتت الأصوات من حوله، اختفت الوجوه والأقدام في الظلام الدامس.. وحده وجه أخيه وهو يتفتح عن ابتسامة رضا لحظة استشهاده بقيت عالقة في مخيلته، دموع والدته وهي تزغرد فوق رأسه.. حدث نفسه ثانية " الموت حقيقة مذهلة، لكن الموت في الحروب وتحت الحصار حقيقة أخرى"، علقت الأسماء والمشاهد في ذاكرته، أحس أن جيلاً من الناس اختفى، أجيال، "ومع ذلك ما زال أبناء المخيمات يتشبّثون في مواقعهم، ويدافعون عن أرضهم وكرامتهم عبر نزيف دائم".

اشتد الظلام في عينيه.. زحف ثانية، حاول الوقوف، ترنّح وسقط ثانية، زحف على بطنه ثانية، لاح له شبح جندي يتحرك

في الظلام، حاول أن يهدأ، دار الجندي دورة كاملة يلاحق كلبه البوليسي بين الأشجار، سمع لهاث الجندي بوضوح، كتم أنفاسه، تنبّه إلى أن هناك آخرين يشتركون في مهمة المطاردة، تمالك نفسه واستعد لإطلاق النار، ابتعدت خطوات الجنود واختفت، قفزت هرة من بين الأشجار، اقتربت من قدميه، قفزت ثانية واختفت بعيداً عن ناظريه، لاحقتها الطلقات النارية، ماءت بصوت يشبه العويل وانكتم الصوت، أغمض عينيه واستسلم لقدره، قفز شريط حياته إلى ذاكرته، وراح الماضي يلاحقه بكل ثقله.. " قبل أن يغتصب الأعداء أرضه، كان يفلح الأرض ويزرعها، يقتات من خيراتها، وعند المساء يعود إلى عائلته مطمئن البال.. أما وقد اغتصبوا أرضه، فقد خيّروه بين الذل في أحضانهم أو النفي والموت بعيداً عن وطنه.. أجبروه على حمل السلاح والوقوف في وجوههم".. شعر انه يمر بلحظات عبر عالم روحي تتجلى فيه السعادة السرمدية، " الشهادة لها قيمة الحياة أيضاً".. هبّ هواء بارد وراح المطر ينهمر بغزارة من جديد، انحنت الأشجار لشدة الرياح، لكنها بقيت صامدة وشامخة في وجه العاصفة.. انتفض ثانية وراحت الذكريات تمخر كشريط سينمائي في رأسه من جديد.. سنوات طويلة مرت وهو يفلح أرضاً لا يملكها.. كان يرافق زملاءه العمال العرب صباح كل يوم للعمل في حيفا ويافا، يزرع الورود ومختلف أنواع الزهور

في الحدائق والشوارع، هؤلاء العمال العرب هم الذين يتعبون، يعملون، يجاهدون في هذه الأرض، وعند الظهر يستريحون قليلاً، يأكلون ويشربون الماء من زجاجات يحملونها معهم، وعند المساء يركبون الحافلات أو الشاحنات ويعودون إلى بيوتهم في الضفة الغربية أو قطاع غزة، وفي كل مرة يغادرون فيها شوارع فلسطين يتركونها أكثر جمالاً وسلاماً.. في قلوب هؤلاء العمال حيثما كانوا يوجد الأمل، وفيها أيضاً الغضب.. تجمهروا في الشوارع وعطّلوا حركة المرور، أقاموا الحواجز في الطرق الرئيسة، أشعلوا النيران في إطارات السيارات تعبيراً عن ثورتهم واحتجاجهم على الجوع والحصار والإغلاق، وسيلتهم الوحيدة للاحتجاج والتعبير عن الغضب.. حدث نفسه، " لم يكن ما أقدموا عليه بالشيء الذي يُذكر، لكنه كان الشيء الوحيد الذي باستطاعتهم القيام به"، ومع ذلك جابههم الجنود بالنيران، بالرصاص الحي بعد أن أفرغوا ذخيرتهم من الرصاص المطاطي.. حاصروا المدن، أغلقوا الطرق، دكّت القاذفات المخيمات ودمّرت البيوت، وزادت من عذابات المشردين وآلامهم.

قطع حبل أفكاره وقْع أقدام الجنود وأحذيتهم الثقيلة، اقتربوا من جديد، شعر أنه محاصر، تذكّر المهمة التي جاء من أجلها، كان المفروض أن يدافع عن المخيم ليدحر جنود الأعداء عن أبناء

جلدته، "النصر أو الشهادة".. لكنه أصيب ولم يمت، وأخذ الجنود يمشّطون الأرض والأشجار بحثاً عن رجال المقاومة.. تحسّس الحزام الناسف المشدود على وسطه، قبّل سلاحه، جمع قواه وزحف من جديد، اقترب هدير طائرة مروحية، حوّلت القنابل المضيئة الليل إلى نهار، حاصره الجنود وطرزوا المنطقة بالرصاص.. شعر أنهم ذبحوه ألف مرة وبألف مدية قبل أن يجهضوا عليه بألف رصاصة.. رفض عقله الباطني فكرة الاستسلام، وتقبل فكرة الاستشهاد.. ناجى ربه " قوّني يا الله حتى يقتربوا مني لأتمكّن منهم قبل أن أقابل وجهك الكريم".. عضّ على نواجذه.. شعر بالألم يخترق عظامه.. همس في أعماقه " كل شيء في سبيل الوطن يهون"، ودوّى انفجار هائل، ولم يتسنّ له رؤية جثث الجنود وهي تتمزّق إلى أشلاء وتتطاير، ولم يسمع صرخاتهم المدوّية في الليل.

****

عمان ١٩٨٩/٥/٤م

الصورة والظل

كان متوتراً وحزيناً، والأمور تزداد سوءاً.. وكان على ارتفاع أكثر من خمسة أمتار عندما انهارت السقالة تحت قدميه، وسقط مرتطماً بالأرض أثناء عمله في البناء.. صعقته الضربة لثوان معدودة، لكنه تمكن من الوقوف على قدميه، ولم يصب إلا ببعض الرضوض الخفيفة.. نقله العمال إلى المشفى القريب، أجرى له الأطباء فحص روتيني.. سألوه عن حاله، نظر إلى عيونهم نظرة بلهاء، وبدا كأنه لا يذكر شيئاً مما حدث له، لا يتذكر أين هو، ولا يتذكر أحداً من أفراد أسرته.. تكوّر في سريره ليلاً، وأخذ يرتجف.. شعر أنه مهجور، دفعه خوفه من المرض لأن يبقى متيقظاً دائماً، بدا خائفاً من النوم ورؤية الكوابيس في الأحلام.. نظر حوله، تراءت له الأشباح من جديد.. فجأة سحب حقنة الكلوكوز من ذراعه ووقف في زاوية الغرفة شبه عار متأهباً للقتال، تجمع الممرضون حوله، هددهم بكسر وتحطيم كل الآلات الموجودة في الغرفة، رفض أوامرهم، هرع الطبيب ليحقنه حقنة مهدئة، رفض الانصياع لأوامره أيضاً، ولم يمكّنه من الاقتراب منه.. وكان الشيء الغريب في تصرفاته، تلك الأصوات والرؤى التي يقول بوجودها في رأسه.. أشباح مخيلة غير محسوسة لم يولها الأطباء أية أهمية..

اتصل الممرض بزوجه وأولاده وأخبرهم أن شيئاً غريباً يحدث مع مريضهم، يهذي بعبارات غير مفهومة ويحاول الهروب من المستشفى.

وصل أفراد أسرته على عجل، لم يتعرف على أحد منهم، صُعقت زوجته لمنظره وصرخت في وجهه "أنا قبلتك فقيراً ومريضاً.. أما مجنوناً فهذا لا يُحتمل"، وطوّحت بنفسها على حافة السرير تبكي مصابها..

بعد أن هدأت، اكتشفت أن ذاكرته تغطي عشرين عاماً من عمره فقط، ويعتقد أنه عاد إلى سن التاسعة عشر مقاتلاً في جنوب لبنان، وما بعدها هوّة بحر سحيقة..

حقنه الأطباء وفحصوه من جديد، عالجوه بالصدمات الكهربائية، نوموه مغناطيسياً وصوروه، لكنهم لم يكتشفوا سبباً منطقياً لفقدان ذاكرته.. خمّن أحد الأطباء أن تضخم الغدة الدرقية هي السبب المباشر لحجم مأساته، وقرر أن يجري عملية جراحية لاستئصال الجزء المتضخم منها، بعد أن فقد ذاكرته لأكثر من خمسة أيام، قضاها خارج الزمان والمكان.

في ليلة تالية، وبعد إجراء العملية، زاره أحد أصدقائه من المقاتلين القدامى، استسلم له وراح يبكي على صدره، استعاد جزءاً من عافيته وذاكرته، ورفض أن يتركه يرحل مدعياً أن

الأطباء والممرضين تآمروا عليه، يريدون قتله أو تسليمه للعدو الذي يتربص له، أكد لصديقه أنه سمعهم يتحدثون عن ذلك أثناء تماثله للنوم عند حضورهم لمراقبة حالته الصحية.

في لحظة هدوء واستسلام، تجسّدت له أحداث الماضي لحظة بلحظة، راحت الصور تكبر وتتقدم أمام عينيه، وأخذ يستعيد ما علق بذاكرته من أحداث.. كان قد مرّ أكثر من ربع قرن قبل أن يتعافى تماماً من إصابته أثناء وجوده مع المقاتلين في جنوب لبنان، ودفعه راتبه الضئيل الذي يتقاضاه من منظمة التحرير الفلسطينية إلى البحث عن عمل إضافي، بعد أن كثرت طلبات أسرته المكونة من سبعة أشخاص، وازدادت متطلبات تعليم أولاده في السنوات الأخيرة.

عادت ذاكرته إلى الوراء، وتذكر أنه كان يقف على سقالة خشبية أثناء عمله نجار طوبار قبل سقوطه إلى الأرض، لكنه عاد وأكد أن أحداثاً غريبة وقعت له في نفس المستشفى قبل أكثر من خمس وعشرين عاماً.. كان محاصراً في زاوية من إحدى غرف المستشفى.. عادت الكوابيس تملأ ذاكرته، وتجسدت الأشباح أمام عينيه، رجف وشعر أنه مثل ريشة في مهب الريح.. شعر أنه يعيش التجربة بكل تفاصيلها من جديد، يحاصره عملاء أباحوا دمه في يوم ما، وفي مستشفى لا يذكر مكانه، أو زنزانة لا يعرف موقعها على الأرض العربية.. شيء لم يشعر به في السنوات

السابقة، بدا جسده مستفزاً دائماً، مشدوداً، مقاتلاً حقيقياً، وما بين لحظة وأخرى يعود مسكيناً مريضاً منكمشاً عاجزاً، كيساً من الخرق البالية.

صور قديمة باهتة الألوان مخرت رأسه، انفلشت ذاكرته فجأة، وراح يتذكر أصدقاءه الذين اختفوا من حياته في جنوب لبنان، واستشهدوا.. بدت أفواج اللاجئين والبيوت التي اشتعلت فيها النيران تتجسد أمام عينيه من جديد.. غيظ من الحرب، غيظ من السياسيين ومن خرائطهم، من ملايينهم وحساباتهم، من قهوتهم الحارة وأخطائهم القاتلة، من عجرفتهم التي لا حدود لها، خوف من لوائح القتلى وصور الشهداء في الصحف وعلى الجدران، وصفوف الجثث في الأكياس البلاستيكية السوداء.

خوف من الزغاريد في الجنازات بدل الدموع الحقيقية..

شعر أنه يتذكر كل شيء، ويستعيد الماضي بكل تفاصيله..

حدث نفسه "المقاتلون الحقيقيون هم الذين دافعوا عن الحرية، ووقفوا في وجوه جنود الاحتلال.. أما السياسيون، فلا يتذكرون غير أرصدتهم، ولهم أفكارهم بهذا الخصوص"..

همس في أعماقه "اللعنة على أفكارهم".

في جنوب لبنان، كان مستعداً للدفاع عن الوطن حاملاً صور الأبطال في عقله وفي شرايينه، وحين عاد يحمل أوسمة من

شظايا القنابل في جمجمته، في رسغه وفي عينه اليسرى التي استبدلها الأطباء بعين زجاجية فارغة في مشفى لا يذكر اسمه أو مكانه.. أحس أنه محبط، مهزوم من أعماقه لأنه لم يستطع أن يلتحق بمواكب الشهداء، ولم تعلق صورته على الجدران أسوة برفاقه.. تحطم الكثير ممن تحملوا جهامة القتال عندما عادوا، وتأكدوا بأنفسهم أنه لم يكن لهم مكان على الأرض العربية.. همس في أعماقه، " لماذا يموت أبناء وطنه بالمئات ويُقتلون دون ندم قبل أن تطأ أقدامهم أرض الوطن!. ولماذا يواجه المقاتلون عند عودتهم من أرض المعركة عدوانية أكثر شراسة من عدوانية أعدائهم، ويشار إليهم كقتلة وإرهابيين، تُطلق عليهم النيران، أو يُلقى بهم في غياهب السجون!".

زفر ثانية وقال لصديقه "لا أحد يفهم كيف يمكن إرسال ركاب إلى الفضاء، ولا توجد طريقة لإنهاء هذا الصراع الذي لا نهاية له".. وأضاف بعد لحظة صمت "الحياة مجموعة من المهازل.. يظن المرء نفسه أنه سيعيش إلى الأبد، لكن العمر يصير ملحاً وماء، ولا يعرف كيف ينتهي".

شعر أنه ما زال على قيد الحياة، استعاد وعيه تماماً ونشطت ذاكرته، راح يتذكر الأحداث لحظة بلحظة إلى أن وصل به المطاف إلى المستشفى..

سأله صديقه "كيف ترى نفسك هذه الليلة؟".

تنهد وقال "أرى نفسي عجوزاً أكثر من الليلة الفائتة، وأقل من الليلة القادمة".

ابتسم صديقه وقال: الحمد لله، انظر حولك، ستجد نفسك أفضل من غيرك.. أنت ما زلت على قيد الحياة، وعليك أن تعيش حياتك كاملة بآمالها وآلامها.

شعر بروحه تعود إليه، تثاءب بعد منتصف الليل، وأحس أن جسمه يتهدم، استلقى على سريره ونظر إلى سقف الغرفة، تساءل في قرارة نفسه "*ماذا جرى له*!"، قام وفتح صنبور الماء، خلع ملابسه، ونظر إلى نفسه في المرآة.. شاهد رقبته ثخينة ومخرومة وسط الحنجرة بعد إجراء عملية الغدة الدرقية، المنكبان ضامران.. كان معتاداً على تجاوب جسده معه بحيث لم يكن باستطاعته أن يتخيل أنه مريض.. مرّر يده على رقبته وعلى شعره، تبين أنه لم يبيضّ فحسب، بل يتساقط أيضاً.. تذكر أحد زملاء الثورة، كان يدهن شعره بدهان الأحذية الأسود ليخفي لونه الأبيض.. استطاع أخيراً أن يتذكر وأن يسمي الألم ويفهمه ويتعامل معه، موقناً أنه سيبقى موجوداً بطريقة أو بأخرى في حياته.. شعر أنه خف من مرضه بطريقة عجيبة، استعاد عافيته،

واختفى الرعب القاتل الذي لازمه طيلة الأيام السابقة، واستطاع أن يبقى وحيداً دون أن يرتعد خوفاً من عيون العملاء.

صباح اليوم التالي شعر بنشاط غير عادي، قام من فراشه، غسل وجهه، ولبس ثيابه، وطلب من الطبيب أن يسمح له بمغادرة المستشفى، قائلاً أنه في غاية الشوق لأفراد أسرته الذين لم يرهم "كما كان يعتقد" منذ أكثر من شهر كامل.

****

بيروت٤/١/٢٠٠٣م

متاهة بيروت

ذات يوم ماطر، راح محمود يتخبط في شوارع بيروت المليئة ببرك المياه الضحلة، سارحاً بأفكاره، دون أن يتنبه لتلك السيارة التي مرت مسرعة، وقذفت بكل قاذورات الشارع على ثيابه.

انزوى جانباً، وقف ينظف ما علق بملابسه من أوحال، مرت دقائق وهو يلعن حظه العاثر، ويستعيد في ذاكرته الاعتداءات المتكررة على جنوب لبنان.. نزوحه إلى بيروت وبحثه عن عمل يقيت به أفراد أسرته.. قطع حبل استرساله صوت قريب ينادي "يا حمّال، أنت يا حمّال".. نظر باتجاه الصوت، أضاف الرجل "تعال"، نظر حوله، لم يجد أحداً غيره على الرصيف.. غامت الدنيا في عينيه، شعر بدوار بحر يلفه، تساءل في قرارة نفسه "ألهذه الدرجة أصبحت حالتي مزرية حتى اعتقد هذا الرجل أني حمالاً".. أنقذه الرجل من متاهات أفكاره وأكّد أنه المطلوب، تابع آمراً "تعال أسرع".. كالمشدود بحبل تقدم نحوه، قال الرجل "كم تريد على حمل هذا الصندوق"؟.

تسمّر في مكانه، فكّر لحظة قبل أن يجيب، تحطمت كل الكلمات وهو يحلم بثمن كيلو من الخبز، ولا يعرف كيف نطق، "مائة ليرة".. مائة ليرة ثمن كيلو واحد، وهذا ما كان يحلم به.

خلال دقائق معدودة وجد نفسه يحمل الصندوق ويتبع الرجل كظله إلى عمارة سكنية قريبة، كان عاجزاً عن التفكير تماماً، وفي نهاية الممر وضع الصندوق، وقذف الرجل بيده ورقة المائة ليرة دون أن ينطق بحرف.

في الليل عاوده مشوار القلق، لم يطل التفكير، استقر رأيه على متابعة المشوار، عند الفجر سابق الباعة باتجاه سوق الخضار، وانقضى النهار دون أن يسمع تلك الكلمة التي وصمه بها ذلك الرجل نهار أمس "حمّال".

عند المساء انتابه شعور بأن كل من في السوق يعرف حكايته، انزوى جانباً يلملم أشلاءه، ويحدث نفسه "أريد أن أعيش، أن أخرج من الدائرة المظلمة التي تغلّف هذه الحياة بالألغاز والحجرات المظلمة.. أريد أن أنعم بالحياة وأشعر بها كما يشعر بها غيري، بصراحة أريد أن أعيش الحياة كما يعيشها الناس".

كان يحلم بمتابعة دراسته العليا بعد حصوله على الشهادة الثانوية، لكن استشهاد والده في الجنوب أعاق تقدمه، وحطم سفينته الشراعية.. دفعه للنزوح إلى مخيم برج البراجنه في ضواحي بيروت مع لاجئي الجنوب، الذين راحوا يحلمون بلقمة الخبز.

فقد الأمل بمتابعة الدراسة، وراح ينتظر الأمل من سوق الخضار على الأرصفة وعلى قارعات الطرق.

أنقذه من متاهته أحد الحمالين، عجوز يناهز الخمسين من عمره، محدودب الظهر بملابس بالية، كان قد شاهده في الجنوب يفلح الأرض قبل أن ينزح إلى بيروت.. جلسا على قارعة الطريق أمام مخزن جانبي، وراحا يتحدثان عن متاعب الحياة.. قال العجوز أنه نزح عن الجنوب ليسد رمق أطفاله الجياع، بعد أن سقطت قذيفة على بيته، قتلت ابنه خليل وزوجته، مخلفان ثلاثة أطفال أكبرهم في السابعة من عمره.

قطع حديثهما أصوات طلقات نارية.. لاذ الجميع بالفرار، وانقضت ثلاثة أيام قبل أن يلتقيا ثانية في سوق الخضار.. كانت الإذاعة قد دعت الناس للعودة صباح ذلك اليوم إلى ممارسة أعمالهم اليومية، موضحة لهم الطرق السالكة والآمنة.. وكان أبو خليل جالساً قرب أحد المحلات يذرف الدموع.. سأله محمود عما حدث معه، قال إن حفيدته الصغيرة توفيت ليلة البارحة، لأنه لم يستطع عرضها على الطبيب بسبب الاشتباكات التي كانت تدور قرب بيته.. وأنه أودعها الثرى في الليل أثناء استراحة المتقاتلين.. وأضاف " لم يعد لنا حياة في بيروت.. وإذا كان لا بد من الموت، فالموت في الجنوب أشرف من الموت بالرصاص الطائش بين المتحاربين في بيروت".

أبدى محمود موافقته على الفكرة، واتفقا أن يعملا ذلك اليوم لتأمين أجرة نقلهما إلى الجنوب.

لم تمض ساعة زمن حتى طلب أحد المتسوقين من أبي خليل نقل عدة صناديق من الخضار إلى الجانب الآخر من الشارع، حيث أوقف سيارته.. أجال أبو خليل بناظريه بين محمود والصناديق وقال: "إنها رزقة الأطفال".

حمل أبو خليل ثلاثة صناديق على ظهره، بينما حمل محمود صندوقين بين يديه، وقبل أن يجتازا الشارع دوّى انفجار عنيف في نهاية الشارع، وتبعه زخات متقطعة من الرصاص.. اندفع الناس يهرولون ويتراكضون.. أسرع أبو خليل يجتاز الشارع، فجأة علا نفير حافلة مسرعة تقترب منه، صرخ محمود يحذّره، لكن القدر سبق الحذر، تطايرت الصناديق، قُذفت وسط الشارع، تبعثرت محتوياتها، ووقع أبو خليل فاقد الوعي بين عجلات الحافلة التي توقفت وسط الشارع.

توالت الطلقات، هرول الناس في كل اتجاه، ألقى محمود الصناديق التي يحملها على الأرض، وأسرع نحو أبي خليل، ناداه، صرخ عليه، لم يبد أبو محمود أية حركة، كان ممدداً، وجهه يلامس العجلة الأمامية، ويده مسحوقة تحت نفس العجلة

والدماء تنزف منها، صرخ ثانية بأعلى صوته، لكن أحداً لم يبدِ أي استجابة لصراخه.

نظر إلى السائق، شاهده متسمراً خلف مقعد القيادة وكأنه فقد وعيه هو الآخر.. بدا وجهه شاحباً باصفرار الموتى، أسرع أحد المارة وقال للسائق: الرجل بخير، عد إلى الوراء قليلاً..

تحرك السائق على مقعده وحاول استعادة قواه العقلية والجسدية، قال الرجل الواقف قرب السائق: تمهل وعد إلى الوراء قليلاً.

انطلقت زخات جديدة من الرصاص باتجاه المتجمهرين، سقط جريح، تعثرت امرأة وسقطت أرضاً، ركض الجميع في كل الاتجاهات طالبين النجاة بأرواحهم، وتحركت الحافلة ببطء شديد..

لا يدري محمود ماذا حدث بعد ذلك، لكنه يذكر أنه سمع صراخاً، وصوت يقول للسائق "توقف، توقف".. لكن الحافلة لم تتوقف، وبدلاً من أن تعود إلى الوراء، تقدمت ببطء شديد إلى الأمام، ثم انطلقت بأقصى سرعة.

حين صحا محمود من غيبوبته التي لا يعرف كم دامت، كان محطماً، وكأنه نام أسبوعاً على كومة من المسامير الحادة، وقبل أن يرفع رأسه شعر بوخز حربة بندقية تمتد إلى صدره، وصوت يقول "أعطني هويتك".

نظر إلى أبي خليل، كانت جثته مغطاة بكيس من الخيش.. شعر بسفينته تغرق، وأيقن أن موجة القتل باتت على الهوية في لبنان.. أمره المقاتل بالوقوف قرب الحائط أمام حملة السلاح الملثمين، عشيت عيناه، ولم يعد غير مشهد حطام الحياة يخترق ذاكرته، وفي أعماقه كانت تُسحق الجمجمة الصلبة تحت عجلات القدر وهي تحلم بالعودة إلى الجنوب.

****

بيروت ١٥/٥/ ١٩٧٦م

رغبات مكبوتة

ما زال يذكر ذلك اليوم جيداً، يذكره بكل دقائقه وتفاصيله.. يذكر أنه قبض راتبه بعد ظهر ذلك اليوم، وخرج من دائرة عمله منتشياً بفرحه، عرج على أقرب صيدلية ليبتاع الدواء لوالدته كما وعدها صباحاً.. وجد الصيدلية مغلقة.. هاله منظر الحشود في الشوارع تأتي وتروح، تتلكأ أحياناً وتسرع الخطى أحياناً أخرى.. وجد نفسه يتسكّع ويتفرج.. يتأمل اللوحات واللافتات القماشية والإعلانات المرفوعة.. دار دورتين في الشارع العريض والشوارع الخلفية يبحث عن صيدلية مفتوحة الأبواب.. لم يجد.. كل أبواب المحال التجارية مغلقة.. الطرق الفرعية سالكة بصعوبة.. كل الطرق والشوارع مغلقة برجال الأمن وعرباتهم العسكرية.. عاد ووقف جانباً يتأمل الوجوه والحركات.

شعر أنه محاصر وسط الحشود الهائلة.. وجوه غاضبة، ورجال أمن مسلّحين بهراواتهم.. لم يجد طريقاً سالكة.. وفي أقل من ربع ساعة التحمت الصفوف وانتظمت التجمعات، فجأة وجد نفسه وسط حشد من المتظاهرين الصاخبين، وسط دوي وهدير العبارات الرنانة " قاطعوا البضاعة الأمريكية، اقطعوا علاقاتكم مع إسرائيل، اطردوا السفير.. احرقوا السفارة، وقاوموا التطبيع".

بدا له أن هدير العبارات في موكب المظاهرة لا تعرف فئات أو طبقات، من العجوز إلى الصبي، من الشيخ إلى العلماني، الطالب والأستاذ، المتعلم والأمي، ومن ذوات الوجوه الصبوحة التي تستحق أن تسهم في مسابقات للجمال.. وتلك العجوز التي تستند على ذراع من هو في سن حفيدها، أصرّت على أن تسهم في تلويحة اليد ورفع صوتها في هذا الموكب الهادر والزحام المائج.

شعر أن لا فرق في هذا الموكب التظاهري، كما لا فرق في محراب العبادة بين الجموع.. السماء تقبل هذا الإحساس وهذه المشاعر الجياشة الهائمة لمناصرة الشعب الفلسطيني الذي يُذبح في فلسطين.. لا فرق بين الأعراق والمنابت والأصول والألوان والأطوال والأعمار والسحنات.

وسط هذه الحشود، شعر بحيوية ونشاطاً، كأنما أعيد إليه شبابه دفعة واحدة.. نسي كل شيء وسط هذا الموج الطامي، نسي المبلغ الذي في جيبه، ونسي الدواء الذي وعد والدته بشرائه ذلك اليوم.. شعر أنه لم يعد غريباً وسط هذه المظاهرة، رغم أن الشرطة بخوذاتها ونظراتها وأدوات استعدادها ضربت طوقاً حول موكب المظاهرة بسور من الهراوات والسيارات العسكرية والقنابل المسيلة للدموع والدخان.. مكبرات الصوت تنذر الجموع وتحذرهم من الاقتراب واجتياز الخط المرسوم لهم.. اندفعت

الجموع وحاولت اقتحام السفارة، زادها الحماس التهاباً واندفاعاً.. ترجّل الضباط من السيارات متعاقبين يتحدثون مع أجهزتهم، يطلبون المزيد من أفراد الشرطة للاحتياط.

تقاطرت وتكاثرت سيارات ضخمة، خمّن أنها لنقل من سيقبض عليهم من قادة الموكب المتصدّرين المظاهرة والمشرفين عليها من كبار العمال وفئات المثقفين.. ومن بعيد ظهرت سيارات الإسعاف وسيارات إطفاء الحريق من قبيل الاستعداد الاحتياطي.

لوّح الضابط بيده كأنه يهدّد وينذر، لكن يبدو أن المظاهرة ليس لها قائد واحد، بل مجموعة متعاونة من الطلاب والعمال والمثقفين والمثقفات ورجال الدين وقادة الأحزاب..

اندفع بين الحشود يميناً ويساراً، وقذف بجسده وسط تيار المظاهرة المتماوج.. تناول منديلاً من جيبه وأخذ يمسح عرقه.. عمره تجاوز الخمسين.. والدته بانتظار الدواء.. أولاده الأربعة بانتظار طبق الحلويات الذي تعوّدوا على التهامه مع استلام راتبه كل آخر شهر.. زوجته أيضاً بانتظار عودته للاحتفال بمرور عشرين عاماً على زواجهما.. راودته فكرة الانسلال والتنحي جانباً.. حاول أن يبتعد عن صفوف المتظاهرين وصفوف الشرطة والسيارات المدجّجة بأفراد الأمن، لكنه تراجع وقرر الاندفاع وسط كتلة الحشود المتحركة.

حاصر أفراد الأمن الجهات والمنافذ والمسالك التي تؤدي إلى المناطق الحساسة والاستراتيجية القريبة من السفارة.. وعلا صوت مكبّر الصوت يحذّر من الاقتراب، أصر كلاهما على موقفه، ولم تتوقف مسيرة المظاهرة.. تساءل في صميم المعمعة وسط هذا الموج الهادر المتزايد "من أين تنبثق هذه الآلاف، وكيف انشقت عنهم الأرض**!؟**".

تلاحقت الصفوف، واستبد الحماس بالمتفرجين والواقفين على الأرصفة، ودخلوا ساحة المظاهرة.

من بين الحشود الهائلة شاهد أحد أفراد الشرطة ينظر إليه، خُيّل له أنه يشير إليه ويحاول التعرف عليه.. كيف لا وهو أستاذ معروف لدى أجيال عديدة.. حدّث نفسه، ربما كان هذا الشرطي أحد تلاميذه في يوم ما.. تلكأ في مسيرته، تلفّت يميناً وشمالاً وحاول أن يخفي معالم وجهه.. حدّث نفسه ثانية، " قد يكون هذا الشرطي أخذ دورة تدريبية في التعرف على سحنات وملامح الناس، ربما تذكرني وعرفني أيضاً.. لكن ما عساه أن يفعل بين هذه الآلاف**!**"..

قفزت في ذاكرته حكايا وقصص طريفة.. تذكر بعض الحكايات التي رواها زملاؤه في وقت سابق، وتذكّر ما شاهده على التلفاز قبل أيام.. المحطات الفضائية تبث كل ساعة صور

الجرحى والشهداء في الضفة الغربية وقطاع غزة، والاعتداءات المتكررة على الشعب الفلسطيني.. تبث صور المظاهرات.. "أحد المتظاهرين أصيب من القنابل المسيلة للدموع في عينيه بعاهة مستديمة أقعدته عن عمله، وآخر ألقوا القبض عليه وأدخلوه إلى قبو في استضافة أبدية.. امرأة حامل في شهرها السابع فقدت الوعي وأسقطت الجنين قرب حاجز وسط الشارع".. تراجع في خطواته، وحاول الابتعاد عن خرطوم المياه الساخنة ونظرات الشرطة وقبضاتهم وعصيهم الكهربائية.. داس أحدهم على رجله.. انخلع حذاءه ولم يستطع انتشاله.. اندفع بفردة حذاء واحدة يواري جوربه المثقوب.

تطايرت أوراق ووزعت مناشير ورزم ورقية في غمرة الأحداث، طوّحت في الهواء لتصل إلى أكبر مجموعة من الأيدي، فيها كلمات احتجاج وأسماء أشخاص وشركات تتعامل مع إسرائيل.. آلات التصوير ووكالات الأنباء وهواة التصوير والأجهزة المتعددة من إذاعات ومذيعين وصحفيين هواة ومحترفين وجدوا لذة ومادة دسمة في أجواء المظاهرة.. تعانقت الأيدي ثانية وتشابكت الأصابع، تخاصرت الأذرع وتلاحمت النفوس في صفوف متراصة، واندفعوا نحو صفوف الشرطة.

فجأة وجد نفسه قريباً من رجال الأمن.. زاغ من هراوة أحدهم.. اندفعت الجماهير.. تراجع أفراد الشرطة إلى الوراء..

أُطلقت من أصحاب الخوذات الحديدية بضع رصاصات في الهواء تحذيراً.. اجتاز هدير الأصوات الصاخبة الحدود المسموحة وسدود الشرطة والخطوط الحمراء.. انهالت على رؤوسهم وعلى وجوههم وعلى ظهورهم العصي الكهربائية والهراوات.. التحمت الجماهير مع رجال الأمن.. تعاقبت الطلقات في الفضاء.. اندفعت الجماهير وتفرقت في الشوارع الخلفية والفرعية والطرقات الضيقة.. انهالت الهراوات على جسده.. وحين صحا في غمرة الأحداث وجد نفسه محشوراً داخل سيارة عسكرية بفردة حذاء واحدة وملابس ممزقة، الدم يسيل من رأسه، ولا أثر للنقود التي كانت في جيبه.

****

مجلة أوراق العدد ٢٠٠٨/٣١م (أحلام محاصرة)

خط أحمر

وسط ركام المخيّم، وفي جنح الظلام، وقف بين مجموعة من المقاتلين، وراح يطلق النار بغزارة.. شاهد الجنود يتقدمون بدباباتهم ومصفحاتهم وسط إطلاق نار كثيف من طائرات الأباتشي التي تحلّق في الجو.. حدّث نفسه "إذا كان لا بدّ من الموت، فليكن، ليكن الموت وأنا قابض على سلاحي وعيناي مفتوحتان، أدفع الظلم عن أبناء المخيم، وأرد الغاصبين".

توالت الطلقات.. انطلقت الصواريخ.. تهدّمت البيوت على من فيها.. أكوام من بقايا السيارات، أكوام من الجثث، أنهار من الدم.. حدث نفسه "ليكن الموت.. الشهادة أفضل من الاحتلال والذل".. أطلق النار بغزارة.. لم ترمش عينه، لم يرتعش.. توالت طلقات الجنود إلى صدور المقاتلين.. حصدت معظمهم.. أفرغ جنود الأعداء رشاشاتهم في الحجر والشجر والبشر.. انطلقت الآهات وامتزجت بكلمات الشهادة، وصرخات الاستغاثة.. ضاعت الكلمات، وتوقفت في الحناجر وسط دوي المعركة وأزيز الرصاص.. ارتسمت تكبيرة على شفاههم وتعانقت لغة الصمت بالطلقات القاتلة.. ارتعبت الطيور وطارت من أوكارها التي بنتها على الأشجار المحيطة بالمخيم.. أسقط طائر حبة القمح من منقاره، ترك فراخه وحلّق بعيداً بفزع تائهاً في السماء.

تقدمت دبابة وأطلقت نيران رشاشاتها نحو المجموعة المدافعة عن المخيم مرة ثانية.. القصف والقتل والتقتيل لم يتوقف منذ أربعة أيام متتالية.. تقدّم جنود المشاة وأطلقوا نيران رشاشاتهم على الجثث الملقاة وسط أنقاض البيوت بأيدٍ مرتعشة، وتواروا وسط الظلام..

من بين مجموعته التي حصدهم الرصاص، أخطأت الرصاصات جسده.. أذهله حضور الموت.. اجتاح الموت مجموعته دفعة واحدة في رمشة عين.. أسكت الموت طلقاتهم، وحده بقي في المعركة بلا ذخيرة.. شاهد الجنود المدججين بأسلحتهم الحديثة يتقدمون، يزرعون الموت والدمار ويطلقون النار على كل شيء يتحرك أو لا يتحرك.. ارتمى في حركة تلقائية بين رفاقه وتظاهر بالموت.. تموّجت اللحظات الرهيبة.. التمعت أحاسيسه وكتم أنفاسه وجنود المشاة يتقدمون.. داست مجنزرة جثتين واندفعت نحو جدار قريب، أخفت معالم البناء وابتعدت عن ناظريه.. وحش حديدي مصفح يطحن البشر والقلاع والأشجار، تنّين يزفر ويمحو الوجود من الذاكرة.. ركله حذاء ثقيل بغطرسته، تململ وأرخى عضلات جسده ممتثلاً لركلة الحذاء.. توارت أقدام الجنود وابتعدت مرتعشة.. فتح عينيه ولاحقت نظراته أحذيتهم.. تناثرت الجثث بين البيوت المهدمة وشجرة الزيتون التي نبتت بين الصخور.. تململ ثم انكمش مثل

قنفذ للحظات.. زحف على بطنه، وقبل أن ينفلت تفقّد زملاءه السبعة لعل أحدهم بقي فيه رمق، أو أخطأه الرصاص.. تحسّسهم واحداً واحداً، وضع أذنه على صدورهم متعلقاً ببصيص أمل.. كانت الرصاصات قاتلة ونافذة، والدماء ما زالت تسيل حارة.. امتزج ظلام الليل بالأفق، وعاد مرة أخرى يتعثر في أحاسيسه وذكرياته وخواطره المتضاربة.. عاد ثانية وتحسّس رفاقه.. تأكّد أنهم سبقوه إلى رحلة الخلود، وتركوه.. مسّد جفونهم وأسبلها على عيونهم.. تأمل وجوههم ثانية.. لاحظ في الشفاه انفراج وكأنها بسمة الاطمئنان.. كانت دماؤهم الطاهرة تنز سائلاً ليورق شجرة الزيتون.. انبثقت دموعه من الموت وأسف على فراق رفاقه.. منهم العريس الذي لم يكمل شهراً مع عروسه.. منهم من هو أب لطفلة تتعثر في الخطو والحرف.. منهم الطالب، منهم المدرس ومنهم المهندس.. حدث نفسه "لن يعودوا، لكن ذكراهم ستبقى عطرة على ألسنة الناس وسجلات التاريخ".. تبلور في ومضة أحاسيسه وتمنى لو رافقهم.. ارتمى بدافع الغريزة وانكمش وتظاهر بالموت.. إنه الصراع الخفي من أجل الحياة.. ربما لم يحن أجله بعد.. ربما ساحة جديدة تنتظره.. مخيم جديد.. في سريرته نفسه أقسم أنه سيواصل الجهاد، ينال شرف الاستشهاد ويلحق برفاقه.. تعثّرت قدماه وتلعثمت خواطره.. ماذا يفعل!، يعود إلى أهله، شظايا إنسان محطم وعبء ثقيل.. يبحث عن

أهله.. يطارده الجنود ثانية، يقتلعون جذور عائلته من الأرض وينسفون بيته إذا بقي له وجود!..

تساءل في قرار نفسه "هل قُدّر لهذه الأجيال ألا ترتاح!.. تتوارث المتاعب كما تتوارث سحنات الوجوه ولون العيون ونبرة الصوت".. تراءت له والدته تزغرد عند عودته سالماً.. تذكّر أنها زغردت يوم ختانه وزغردت يوم زفافه.. أما الزغرودة الثالثة فلم يسمعها بعد.. أقسمت أنها ستزغرد يوم يرزقه الله بولد.. حين جاءت طفلته الأولى لم تزغرد والدته.. اعتقد أنها ستزغرد يوم استشهاده.. تراءت له طفلته تناديه "بابا، بابا".. رآها في انبطاحه بين رفاقه تبتسم له.. تفاءل بهذه الابتسامة.. الابتسامة تعني النصر، العودة سالماً إلى البيت.. زحف، ابتعد، غمرته الجدران المتهدمة وأخفته عتمة الليل عن العيون.

قبل الفجر بقليل، أحاط به رفاق جدد.. انتشلوه من الهم والألم والموت، ووضعوه في دائرة الاستجواب.. "كيف نجوت وحدك!؟"، تكاثرت الأسئلة والتساؤلات وعلامات الاستفهام حوله.. أجلسوه وحيداً في غرفة جانبية وسط الظلام.. فتشوه، لم يجدوا معه ما يثبت شخصيته.. سأله أحد المقنّعين المتوارين خلف الثورة عن المبلغ الذي قبضه.. كم، وأين خبأه!؟.. استجوبه آخر متهكّماً "لا بدّ أنك على اتصال مباشر بجنود الأعداء، وإلا كيف نجوت وحدك من بين العشرات!؟".

حاول إقناعهم إنه من المقاتلين، وإنه من مجموعة الشهيد ناصر.. كشف لهم عن جراحات صدره وذراعيه.. قال أحدهم "نحن نعرف مجموعة الشهيد واحداً واحداً، ونعرف أنك لست واحداً منهم".

حاصروه بعيون مرتابة، وضيقوا عليه بالأسئلة المتشكّكة.. تهامس المتحلّقون حوله.. وقال أحد المتسرّعين "لا وقت لدينا، العدو يحاصرنا، ولا مجال في إضاعة الوقت أو محاكمته.. المطلوب كلمة واحدة بريء أو مذنب"..

تطايرت النظرات وحاصرته الكلمات.. مقاتل شجاع، مظلوم، بريء، متّهم، جبان، كذّاب، محجوب عنه الرصاص، عميل، مذنب، متواطئ، جاسوس.. سوس.. سوس.. سوس.. تطايرت الكلمات وصدى الصوت عمّ أرجاء المكان.. طارت الكلمات وسرت الشائعة في المخيّم سريان النار في الهشيم.. " قبضوا على جاسوس.. سوس.. سوس".. دافع عن نفسه.. "اسألوا وتحققوا قبل أن تندموا.. أنا من مجموعة الشهيد ناصر".. ضاعت الكلمات بين ركلاتهم.. كمّموا فمه وخنقوا صوته.. أوثقوا يديه خلف ظهره، وقبل شروق الشمس علّقوه على سلّم خشبي وأطلقوا عليه النار.. وكانت أصابعهم أقل ارتعاشاً وأشد ثباتاً من جنود الاحتلال.

****

المحتويات

١. أحلام شرقية ٥
٢. ضياع..... ٩
٣. حكاية قلب ١٥
٤. دمعة..... ٢٢
٥. أحلام ملونة..... ٢٨
٦. عيون لا ترى السعادة..... ٣٣
٧. حصة في الذاكرة..... ٣٦
٨. للبيوت أسرار ٤١
٩. شهادة ٤٤
١٠. صورة العمر..... ٤٧
١١. ذاكرة خريفية..... ٥١
١٢. فرسان السراب ٥٧
١٣. ضيف المساء..... ٦٢
١٤. الجرح والمنفى..... ٧٢
١٥. الحقد الأعمى ٧٦
١٦. القديس..... ٧٨
١٧. حدود الغضب ٨٢
١٨. الصورة والظل..... ..... ٨٥
١٩. متاهة بيروت..... ٩١
٢٠. رغبات مكبوتة..... ٩٦
٢١. خط أحمر..... ١٠١

المؤلف في سطور

الاسم: ابراهيم ذيب نافع الفقيه

اسم الشهرة: ابراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي أردني.
- مواليد صوبـا / القدس / عام 1946م .
- حصل على ليسانس في الآداب/ قسم اللغة العربية.
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين .
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.
- **صدر له :**

الروايات

- الهذيان – روايـة – دار الزهراء – بيروت عام 1975م ..
- ما زال للصبار روح – روايـة – دار النهضة، عمان 1993م . طبعة ثانية لرواية "جذور في طريق التحرير" الصادرة عن دار الزهراء في بيروت عام 1974م
- الصمت المعبر – رواية – دار عمار ، عمان 1996م .
- الخريف واغتيال أحلام – رواية – دار النهضة ، عمان 1996م .

- الأرض الحافيـة – رواية – دار الينابيع ، عمان 1999م .
- نوافذ الغضب – رواية – دار الحرية، دار الينابيع، عمان 2001م.
- ظمأ السنابل – رواية – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م

مجموعات قصصية

- القربان – مجموعة قصصية – دار عمار ، عمان 1990م
- فرسان السراب – مجموعة قصصية

تاريخ

- صـوبـا – إحدى قرى فلسطين المدمرة عـام 1948م فـي منطقـة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – عمان 1996م .

إبراهيم الفقيه
البريد الإلكتروني: faqeh46@hotmail.com
موقع صوبا: www.subaa.com